قضايا عقدية معاصرة


بقلم
أ.د/ ناصر بن عبد الكريم العقل
أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



دار الفضيلة

قضايا عقدية معاصرة

بقلم
أ.د/ ناصر بن عبد الكريم العقل
أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الفضيلة



تحميل كتب و رسائل علمية

قناة عامة

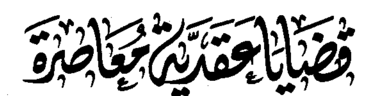
معلومات

t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah

رابط الدعوة

الإشعارات

معطّلة



الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

دار الفضيلة
الرياض ١١٤٣٣ - ص.ب ١٠٣٨٧
تليفاكس ٢٣٣٣٠٦٣

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٣).

أما بعد:

فإن الدين النصيحة، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ حيث قال: **«الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»**(٤).

وإنه من هذا المنطلق، واستجابة لوصية الرسول ﷺ كان هذا الإسهام القليل في نصح الأمة من المخاطر التي تحيط بها، بالتحذير من الإفتراق والتشبه بالكافرين، وخصال الجاهلية.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء الآية ١.

(٣) سورة الاحزاب الأيتان ٧٠, ٧١.

(٤) رواه مسلم كتاب الأيمان ح٢ [ص٣٦، ٣٧].

وكانت مادة هذه الموضوعات الثلاثة تمثل محاضرات ألقيتها في بعض المساجد والمراكز في الرياض وغيرها من مدن المملكة العربية السعودية (عمرها الله بالإسلام وحفظها من كل سوء وجميع بلاد المسلمين).

كما سبق وأن نشرت كل واحدة منها من رسالة صغيرة.

وقد اقترح عليَّ المشرف على قسم النشر بدار (الفضيلة) أن تنشرها الدار في مجموعة واحدة، وبعد تردد استجبت لرغبته؛ لما بين هذه الموضوعات من تجانس، ولأهميتها في واقع المسلمين اليوم خاصة وأن الكثير من المسلمين قد وقع في هذه القضايا بعمد أو بغير عمد، وجعلتها تحت عنوان **(قضايا عقدية معاصرة)** سائلاً الله تعالى أن ينفع بها، وأن يهبنا الصدق والإخلاص في القول والعمل، وأن يبارك لنا في العلم والوقت، وأن يوفق جميع المسلمين للحق والصواب، وينقذهم من هذه الفرق والبدع والتقليد والجهل، وأن يجمع كلمتهم على السنة ويوحد صفوفهم على راية التوحيد، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدينا.

وكتب

ناصر بن عبدالكريم العقل

المبحث الأول

الافــتراق

مفهومه ـ أسبابه ـ سبل الوقاية منه

* * * * *


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

تمهيد

قال الله عز وجل محذراً من الافتراق: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وحذر النبي ﷺ أمته مما وقعت فيه الأمم من الابتداع والافتراق، بقوله: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه»**[1].

ولذا فإن من أهم الموضوعات التي ينبغي أن يعنىٰ بها أهل العلم وطلابه في هذا العصر، والتي هي من أحوج ما يحتاج إليه المسلمون بعامة، وطلاب العلم بخاصة، مسألة الافتراق **(الافتراق مفهومه وأسبابه، وسبل التوقي منه، والحذر من الوقوع فيه)**.

لا سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه البدع وأخرجت أعناقها، وكثرت فيه الأهواء، وسيطرت علىٰ الناس، وكثر فيه الخبث والنفاق، نعم، لقد كثرت الأهواء رغم كثرة العلم وانتشاره، إلا أن منه ما لا بركة فيه لأصحابه، ولا يفيد الكثيرين ممن تلقوه؛ لأنه إما أن يكون تلقيه عن غير المصادر الأصلية، أي من غير الكتاب والسنة والآثار ومصنفات أئمة الهدىٰ المقتدىٰ بهم في الدين، أو عن غير أهله، أو علىٰ غير منهج أهل العلم والفقه في الدين، وكثرة وسائل العلم، وهذه نعمة من الله لكن رغم أنها نعمة إلا أنها قد ضرت كثيراً من الناس حين استعجلوها علىٰ غير وجهها وحين اكتفوا بها عن أخذ العلم عن أهله، وهذا من العلم الذي لا ينفع،

(١) رواه البخاري [١٣/ ٣٠٠] ومسلم حديث رقم [٢٦٦٩].

الذي استعاذ منه النبي ﷺ(١)، فإن البركة إنما تتحقق في العلم الذي يؤخذ عن العلماء، وهو الأصل الذي هو سبيل المؤمنين، أما أخذ العلم عن الوسائل فقط دون الرجال فإنه لا ينفع إلا قليلاً، مما نتج عنه ظهور الأهواء والآراء الشاذة عن السنة، وشيوع مظاهر الافتراق والتنازع في الدين، وبحثنا هذا سيكون عن: الافتراق، مفهومه، أسبابه، وسبل التوقي منه.

وسأحصر الحديث في هذا الموضوع على خمس مسائل:

المسألة الأولى: مفهوم الافتراق.

المسألة الثانية: الفرق بين الاختلاف والافتراق.

المسألة الثالث: وقوع الافتراق في الأمة.

المسألة الرابعة: تاريخ الافتراق في الإسلام.

المسألة الخامسة: أسباب الافتراق.

* * * * *

(١) جاء ذلك في حديث أخرجه مسلم عن زيد بن أرقم وفيه «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع» الحديث ـ كتاب الذكر الحديث (٢٧٢٣).

المسألة الأولى
مفهوم الافتراق

الافتراق في اللغة: من المفارقة، وهي المباينة والمفاصلة والانقطاع، والافتراق أيضًا مأخوذ من الانشعاب والشذوذ ومنه الخروج عن الأصل، والخروج عن الجادة، والخروج عن الجماعة.

وفي الاصطلاح: الافتراق هو الخروج عن السنة والجماعة في أصل أو أكثر من أصول الدين القطعية، سواءً كانت الأصول الاعتقادية، أو الأصول العملية المتعلقة بالقطعيات، أو المتعلقة بمصالح الأمة العظمىٰ، أو بهما معًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ أنه قال: **«من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل، فقتله جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه»**[1].

فمخالفة أهل السنة والجماعة في أصل من أصول الدين في العقيدة افتراق ومفارقة للجماعة، ومخالفة إجماع المسلمين افتراق ومفارقة للجماعة، ومخالفة جماعة المسلمين وإمامهم فيما هو من المصالح الكبرىٰ افتراق ومفارقة للجماعة.

والخروج عن إجماع المسلمين عملاً افتراق؛ لأنه مفارقة للجماعة.

---

(١) رواه مسلم [١٨٤٨].

وكل كفر أكبر يُعدّ افتراقًا وليس كل افتراق كفراً.

أعني أن كل عمل أو اعتقاد يخرج به الإنسان عن أصول الإسلام وعن قطعيات الدين وعن السنة والجماعة وهو يقتضي الكفر فإنه مفارقة، لكن ليس كل افتراق كفراً؛ بمعنىٰ أنه قد يقع الافتراق من طائفة أو فريق من الناس أو جماعة، لكن قد لا توصف بالكفر، حتىٰ إن افترقت عن جماعة المسلمين في عمل ما، كافتراق الخوارج، فالخوارج الأولون افترقوا عن الأمة، وخرجوا عليها بالسيف، وفارقوا جماعة المسلمين وإمامهم، ومع ذلك لم يحكم الصحابة بكفرهم، بل اختلفوا فيه. ولما سئل عنهم علي ـ رضي الله عنه ـ لم يحكم بكفرهم، وكذلك ابن عمر وغيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يصلون خلف نجدة الحروري، وكان ابن عباس يجيب نافع بن الأزرق ويناظره بالقرآن كما يتناظر المسلمان[1].

* * * * *

(١) انظر: منهاج السنة، لشيخ الإسلام ٥/ ٢٤٧/ ٢٤٨.

المسألة الثانية

الفَرْقُ بين الاختلاف والافتراق

الفرق بين الافتراق والاختلاف أمر مهم جدًا، وينبغي أن يُعنىٰ به أهل العلم؛ لأن كثيرًا من الناس خاصة بعض الدعاة وبعض طلاب العلم الذين لم يكتمل فقههم في الدين، لا يفرقون بين مسائل الخلاف ومسائل الافتراق، ومن هنا قد يرتب بعضهم علىٰ مسائل الاختلاف أحكام الافتراق، وهذا خطأ فاحش أصله الجهل بأصول الافتراق، ومتىٰ يكون؟ وكيف يكون؟ ومن الذي يحكم بمفارقة شخص أو جماعة ما؟

من هنا كان لابد من ذكر بعض الفروق بين الاختلاف وبين الافتراق، وسأذكر خمسة فروق علىٰ سبيل المثال لا علىٰ سبيل الحصر:

الفرق الأول: أن الافتراق أشد أنواع الاختلاف، بل هو من ثمار الخلاف، إذ قد يصل الخلاف إلىٰ حد الافتراق، وقد لا يصل، فالافتراق اختلاف وزيادة، لكن ليس كل اختلاف افتراقًا، وينبني علىٰ هذا الفرق الثاني.

الفرق الثاني: وهو أنه ليس كل اختلاف افتراقًا، بل كل افتراق اختلاف، فكثير من المسائل التي يتنازع فيها المسلمون هي من المسائل الخلافية، ولا يجوز الحكم علىٰ المخالف فيها بالكفر ولا المفارقة ولا الخروج من السنة.

الفرق الثالث: أن الافتراق لا يكون إلا على أصول كبرى، أي أصول الدين التي لا يسع الخلاف فيها، والتي ثبتت بنص قاطع أو بإجماع، أو

استقرت منهجًا عمليّا لأهل السنة والجماعة لا يختلفون عليه، فما كان كذلك فهو أصل، من خالف فيه فهو مفترق، أما ما دون ذلك فإنه يكون من باب الاختلاف.

فالاختلاف يكون فيما دون الأصول مما يقبل التعدد في الرأي، ويقبل الاجتهاد، ويحتمل ذلك كله، وتكون له مسوغات عند قائله، أو يحتمل فيه الجهل والإكراه والتأول، وذلك في أمور الاجتهادات والفرعيات، ويكون في بعض الأصول التي يعذر فيها بالعوارض عند المعتبرين من أئمة الدين، والفرعيات أحيانًا قد تكون في: بعض مسائل العقيدة التي يتفق على أصولها، ويختلف على جزئياتها، كإجماع الأمة على وقوع الإسراء والمعراج، واختلافهم وتنازعهم في رؤية النبي ﷺ لربه فيه، هل كانت عينية، أو قلبية؟

الفرق الرابع: أن الاختلاف قد يكون عن اجتهاد وعن حسن نية ويؤجر عليه المخطئ ما دام متحريًا للحق، والمصيب أكثر أجرًا، وقد يحمد المخطئ على الاجتهاد أيضًا، أما إذا وصل إلى حد الافتراق فهو مذموم كله، بينما الافتراق لا يكون عن اجتهاد، ولا عن حسن نية، وصاحبه لا يؤجر بل هو مذموم وآثم على كل حال، ومن هنا فهو لا يكون إلا عن ابتداع أو عن اتباع هوى، أو تقليد مذموم، أو جهل مطبق.

الفرق الخامس: أن الافتراق يتعلق به الوعيد وكله شذوذ وهلكة، أم الاختلاف فليس كذلك، مهما بلغ الخلاف بين المسلمين في أمور يسع فيها الاجتهاد، أو يكون صاحب الرأي المخالف له مسوغ أو يحتمل أن يكون قال الرأي المخالف عن جهل بالدليل ولم تقم عليه بالحجة، أو عن إكراه يعذر به قد لا يطلع عليه أحد، أو عن تأول، ولا يتبين ذلك إلا بعد إقامة الحجة.

*****

التنبيه على بعض الأخطاء

وبمناسبـة الفـرق بين الاختـلاف والافتـراق لابد من التنبيـه علىٰ بعض الأخطاء التي يقع فيها كثير من الناس في هذا العصر، خاصة الذين يواجهون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الدعـوة إلىٰ الله سبحـانه وتعـالىٰ، مع ضـعف في العـلم، وقلة الفـقـه في الـدين، أو قلة التـجـربة، أو قـصـور أو انحراف في التصور، وأخص بعض رواد الدعوة الإسلامية المعاصرة.

فمن هذه الأخطاء:

الخطأ الأول: إنكار أن يكون في الأمة افتراق، وينبني عليه نزوع بعضهم إلىٰ إنكـار حـديث الافـتـراق الذي ورد عن النبي ﷺ؛ وسيـأتي الكـلام عنه تفـصيلاً بعد قليل، وهذا خطأ فادح، أن يميل بـعض الناس أو يدعي أنه ليس في الأمـة افتـراق، وهو بذلك يزعم أنه يريد أن يظهـر حسن النيـة في الأمـة، وأن يعـامل الأمـة بالظاهر، ومن هـنا يتنكر لحـديث الافـتـراق أو يؤوله، أو يصرف الافتراق إلىٰ فرق خارجة عن الإسلام قطعًا، أو إلىٰ فرق في الأمة هي من غير المسلمين، وهذا خطأ فادح بل هو معـارضة صريحة لأخبار النبي ﷺ، بل الأخبـار القاطعـة في الكتاب والسـنة، تدل علىٰ وقوع الافـتراق[1]، فـالأمة فعلاً فـيهـا افتـراق وهذا حق، والافتـراق من الابتلاء، والحق لا يتـبين إلا بضـده، والله سـبحـانه وتعـالىٰ كـتب منذ الأزل ألا يبـقىٰ علىٰ الحق إلا أقلون، وعلىٰ هذا فإن القـول بوقـوع الافـتراق لا يعـد إسـاءة ظن بالأمـة، بل هو أمر واقع لابد من الاعتـراف به، ولا بد من تصديق خبر النبي ﷺ فيـه كما

(١) ستأتي النصوص القاطعة الدالة علىٰ وقوع الافتراق في فصل لاحق.

أخبر، وكون الافتراق يقع في الأمة لا يعني أن الإنسان يُسلّم بالأمر الواقع، أو يزعم أن المفارقة مشروعة، أو يرضىٰ بأن يفارق أو لا يتحرىٰ الحق ولا يبحث عنه استسلامًا لقدر المفارقة، بل إن وقوع الافتراق هو دافعٌ لكل مسلم بأن يتحرىٰ الحق ويستمسك به، ويعرف الشر ليحذره ويتجنب مسالكه، وليعلم أن الحق لابد متحدّد في نهج النبي ﷺ وفي نهج صحابته، ونهج السلف الصالح.

الخطأ الثاني: وهو قد يتخذ ذريعة للمفارقة، وهو يقابل الخطأ الأول بالتمام وهو اعتقاد أن المفارقة ما دامت أمرًا واقعًا فهذا يعني أن الأمة تقع فيه برضًا وتسليم، وأنه يشرع للدعاة أن يرضوا بواقع الافتراق ويسلموا به، وأن يقبلوا هذا الضلال دون أن يسعوا لعلاجه، وأنه لا يضر المسلم أن يكون مع أي فريق كان؛ لأن المفارقة أمر واقع، فعلىٰ المسلم أن يذهب مع من يعجبه من أهل الأهواء وأهل الفرق، أو يتعاطف معهم، أو يسعىٰ لجمعهم علىٰ ما هم فيه من افتراق.

وهذه أيضًا دعوىٰ باطلة بل هي تلبيس علىٰ المسلمين، فلا يجوز أن يكون الخبر عن الاختلاف ذريعة للمفارقة، أو ذريعة للرضا بالبدع، أو ذريعة للرضا بالأهواء والرضا بالخطأ؛ لأن الخبر عن الافتراق في الدين جاء بمعرض النهي والتحذير الشديد، ولقد وصل الأمر عند البعض ممن ينتسبون للدعوة أن يقول: ما دام الرسول ﷺ أخبر بأن الأمة ستفترق، فإذًا لابد أن نرضىٰ بالبدع ونقرَّها أمرًا واقعًا، ونرضىٰ بالأهواء ونُقرها أمرًا واقعًا، ونسلّم للأمر الواقع ولنعرف بأنه لا دين إلا بدخن!! وهذه دعوة باطلة بل هي من مداخل الشيطان علىٰ الإنسان؛ لأن الرسول ﷺ حينما أخبر عن

الافتراق، أخبر بأنه ستبقى طائفة من هذه الأمة على الحق، ظاهرة منصورة[1]، ظاهرة بالحق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهذه الطائفة تقوم بها الحجة، ويهتدي بها من أراد الهدى، ويقتدي بها من أراد الحق والخير والسنة، فإذًا الحجة لابد أن تكون قائمة، والحق لابد أن يظهر، ولا يمكن أن يخفى على كل ذي بصيرة، ولا على كل من يريد الحق ويسعى إليه صادقًا، فإنه من يتق الله يجعل له مخرجًا. فما دام الحق واضحًا والسنة قائمة فلا يجوز للداعية ولا لغيره أن يعدل عن السنة مهما قل أتباعها، ولا أن يستسلم ويرضى بالبدع والأهواء مهما كثر أتباعها؛ فإن الفرقة الناجية واحدة من ثلاث وسبعين فرقة، فافهم رعاك الله.

فمن هنا كان الرضا بالبدع والأهواء على أنها أمر واقع لا يجوز شرعًا، بل هو تلبيس على المسلمين، وهو أيضًا تحقيق للباطل، وإعراض عن الحق، واتباع لغير سبيل المؤمنين، نسأل الله السلامة.

الخطأ الثالث: خطأ الذين يجعلون من الاختلاف ذريعة للتسرع في وصف المخالفين بالخروج، أو المفارقة، أو المروق من الدين، وما يستتبع ذلك من الاستعجال في الحكم على المخالفين دون رجوع إلى قواعد الشرع وأصول الحكم، ومناهج أئمة الدين في ذلك؛ لأن التكفير له ضوابطه وأصوله، حتى مع مرتكبي البدع والأهواء؛ لأن ترتيب الأحكام عليهم بالكفر أو البراء والبغض والهجر، والتحذير من المخالف مطلقًا، دون التثبت ودون إقامة الحجة؛ لا يجوز. أعني بذلك أنه لا ينبغي لكل من رأى أي بدعة في شخص أن يصفه بالمفارقة، ولا كل من رأى أمرًا مخالفًا للشرع

---

(١) ونص الحديث قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله» رواه البخاري [٣٦٤٠، ٣٧١١] ومسلم [١٠٣٧].

والدين والسنة أن يصفه بالمفارقة ؛ لأن من الناس من يجهل الأحكام ، والجاهل معذور حتى يعلم ، ومن الناس من يكون مكرهًا في بيئة ، أو في مكان ما ، كما يحدث في بعض البلاد الإسلامية التي يُكْره فيها المسلمون ـ مثلاً ـ على حلق اللحى ، أو على ترك الجماعة ، أو على التلفظ بالكفر ، أو على ممارسة بعض الأعمال التي لا تجوز شرعًا ويكرهون على ذلك ، ولو لم يفعلوا لقتلوا ، أو عذبوا ، أو انتهكت أعراضهم ، أو نحو ذلك .

إذًا فإن عارض الإكراه لابد أن يرد في ذهن الحاكم على الناس بأي حكم من الأحكام ، وقد يكون فاعل البدع أو معتقد الضلالة متأولاً ، ولم تقم عليه الحجة ، فلابد من إقامة الحجة على الناس ، فقد يرى أحد منا إنسانًا يرتكب بدعة من البدع التي عادة إنما يرتكبها أهل الافتراق ـ كبدعة المولد مثلاً ـ فإذا فعلها إنسان عامي جاهل فلا يعني أن يوصف بالضلال ، حتى يُبيّن له الأمر ، وتقام عليه الحجة ، ولا أن يوصف بالافتراق ، أما فعله فيوصف بالابتداع ، لكن لا يوصف بأنه مفارق ، أو أنه خارج عن الجماعة ، أو أنه من الفرق الهالكة بمجرد رؤية بدعة أظهرها حتى تقام عليه بالحجة ؛ اللهم إلا البدع المكفرة ، وليس المقام هنا يتسع للكلام عنها .

بل اتهام الناس بالمفارقة للدين فيما هو دون الأصول من البدع والمخالفات والمحدثات لا يجوز ، بل هو من التعجل المذموم ، وينبغي على من رأى شيئًا من ذلك أن يتثبت وأن يسأل أهل العلم ، ويفترض أن المسلم الذي وقع في ذلك جاهل ، أو متأول ، أو مقلد يحتاج إلى نصح ، وبيان ، وإرشاد ، وأن يعامل ابتداءً بإشفاق ورفق ؛ لأن القصد هدايته لا تجريحه .

الخطأ الرابع: الجهل بما يسع فيه الخلاف وبما لا يسع ، أي عدم التفريق عند

كثير من المنتسبين للإسلام، بل ومن المنتسبين للدعوة، بين ما هو من أمور الخلاف، وما هو من الأمور التي لا يصح فيها خلاف، وأضرب لذلك أمثلة:

١ - من الناس من يعد بعض المسائل الخلافية من القطعيات والأصول دون أن يرجع إلى أصول أهل العلم، وإلى أقوالهم أو دون أن يهتدي بأهل الفقه في الدين، الذين يبصرونه في هذه الأمور.

٢ - ومن ذلك عدم التفريق بين الأمور المكفرة وغير المكفرة.

٣ - عدم التفريق بين البدعيات الكبرى وما دونها، والبدعيات المخرجة من الدين أو المكفرة وما دونها، فإن كثيراً من الأخطاء التي تحدث من الأشخاص، أو من الهيئات، أو من الجماعات - ويكفرهم بعض المتعجلين بسببها - هي ليست كذلك، فإن بعض الناس إذا عرف بأصل من الأصول التي تكفر، كالقول مثلاً بأن القرآن مخلوق، طبّقه على كل قائل بهذه المقولة دون الأخذ بأحكام التكفير، وهكذا في بقية المسائل، وعدم التفريق بين الأصل وبين الحكم على المعيّن أمر مخالف لأصول السلف وأصول أهل السنة والجماعة.

إن أهل السنة والجماعة يفرّقون بين الأحكام العامة بالكفر، وبالفسق، وبالتبديع على وجه العموم، وبين الحكم على المعيّن، فقد نحكم على عمل أو شيء ما بأنه كفر، ونحكم على مقولة ما من المقولات بأنها كفر، وهذا لا يعني أن كل من اعتقد أو فعل هذا الكفر يكفر، ولا كل من قال بهذا القول يكفر، هناك كثيرون لا يفرّقون في هذه المسائل فيُكفّرون باللوازم ويُكفّرون دون الأخذ بضوابط التكفير، مع أن الكفر لا يجوز إطلاقه حتى يتم التثبت،

وبيان الحجة وإقامتها، وبيان الدليل ومعرفة عدم وجود العوارض المانعة من إطلاق التكفير على المعيّن، كالجهل وعدم وجود الإكراه، وعدم وجود التأول. وهذه مسألة تحتاج إلى مقامات طويلة، وإلى مقابلة للأشخاص، وإلى الجلوس إليهم، ونقاشهم ونصيحتهم، أما أن نرتب أحكام الكفر على كل من ظهرت منه حالة كفر، أو مقولة كفر، أو اعتقاد كفر، فإن هذا لايجوز إلا في الأمور الكبرى التي تعلم من الدين بالضرورة، كمن أنكر شهادة أن لا إله إلا الله، فهذا معلوم من الدين بالضرورة كفره، أو من أنكر شهادة أن محمداً رسول الله، فهذا معلوم من الدين بالضرورة كفره أو من سب الرسول ﷺ، فهذا معلوم من الدين بالضرورة كفره، لكن هناك من أصول الدين ما تخفى دقائقه وتفصيلاته، وألفاظ الاعتقاد به على العامة، ومن في حكمهم، كمسائل الصفات، ومسائل القدر، ومسائل الرؤية، والشفاعة، ومسائل الصحابة، وغير ذلك من الأمور التي لا يعلمها العامة تفصيلاً، بل تخفى حتى على بعض من ينتسبون إلى العلم، تخفى عليهم تفاصيلها، وربما يتلفظ بعضهم بلفظ كفر وهو لا يشعر، أو وهو لم يتعمد، أو هو لا يدري، أو لم يتمعن العبارة، فهل هذا يحكم بكفره ابتداءً؟ لا يجوز الحكم عليه قبل التثبت من حاله.

إن من أشد الأخطاء التي يقع فيها كثيرون من الذين يتعرضون للحكم على الناس ـ خاصة بعض صغار طلاب العلم والأحداث منهم، الذين لم يتفقهوا في الدين على أهل العلم، إنما أخذوا العلوم الشرعية عن الكتب والوسائل دون اهتداء، ودون اقتداء، ودون مراعاة للأصول، ولا معرفة بأصول الاستدلال وأصول الأحكام ـ هؤلاء يقع بعض منهم في هذه المسائل الخطيرة، وهي عدم التفريق بين الأصول وبين تطبيق الأصول على الجزئيات

والحوادث والنوازل.

فأحكام الكفر والتكفيروأحواله، لا تعني تكفير كل شخص يقول بها، أو يعملها، أو يعتقدها، وأحكام الولاء والبراء، مثل أحكام التكفير، لا تعني تطبيق هذا الولاء والبراء على كل من يظهر منه موجبه، حتى يتم التأكد، أقصد بذلك البراء بخاصة، أما الولاء فهو الأصل لكل مسلم، ولا يجوز التوقف والتبين في الولاء إذ الولاء واجب لكل من يظهر منه الإسلام، حتى يظهر ويتأكد ما يخالفه.

كذلك عدم اعتبار المصالح والمفاسد أو الجهل بقواعد جلب المصالح ودرء المفاسد سبب من أعظم أسباب الوقوع في هذه الأخطاء وأمثالها.

* * * * *

المسألة الثالثة

وقوع الافتراق في الأمة

هل وقوع الافتراق في هذه الأمة؟ وهل يقع أو لا يقع؟ هذه المسألة محسومة بأمور:

أولها: الأخبار المتواترة عن النبي ﷺ بوقوع الافتراق في هذه الأمة، ومن ذلك حديث الافتراق: «افترقت اليهود على إحدىٰ وسبعين فرقة، وافترقت النصارىٰ على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة»، هذا حديث للنبي ﷺ مشهور، وقد رواه جمع من الصحابة، وخرّجه الأئمة العدول، الحفاظ في السنن، كالإمام أحمد، وكأبي داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وابن حبان، وأبي يعلىٰ الموصلي، وابن أبي عاصم، وابن بطة، والآجري، والدارمي، واللالكائي. كما صححه جمع من أهل العلم، كالترمذي، والحاكم، والذهبي، والسيوطي، والشاطبي، وأيضًا للحديث طرق حسنة كثيرة، بمجموعها تصل إلىٰ حد القول بصحته.

الثاني: أن النبي ﷺ أخبر بخبر آخر عن الأمة ستتبع الأمم السابقة، وهو الحديث الصحيح المتفق عليه في الصحاح والسنن، وهو حديث: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعًا بذراع، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قلنا. يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟! قال: فمن؟»[1].

(١) أخرجه البخاري، فتح الباري ١٣/ ٣٠٠، ومسلم رقم (٢٦٦٩).

وهذ الحديث أيضًا فسّر بما يدل على أن المراد التشبه بنصوص وألفاظ كثيرة، مثل قول النبي ﷺ: «حذو القذة بالقذة»، وغير ذلك من الألفاظ التي تدل على أن النبي ﷺ أخبر ـ على سبيل التحذير ـ أن الأمة ستقع في الافتراق حتمًا، وأن وقوعها أمر واقع تبتلى به هذه الأمة، وليس وقوع الافتراق ذمًّا إلا للمفترقين، وليس هو ذمًّا على الإسلام، ولا انتقاصًا، ولا ذمًّا لأهل السنة والجماعة، وأهل الحق، إنما هو ذم المفترقين، والمفترقون ليسوا هم أهل السنة والجماعة، بل أهل السنة هم الباقون على الأصل، وهم الباقون على الإسلام، وهم الذين أقام بهم الله الحجة على الناس إلى قيام الساعة.

إذًا فالافتراق واقع حتمًا، وهو خبر صادق حتى لو لم يشهد به الواقع، وتشهد به العقول، فهو ثابت عن النبي ﷺ من طرق وألفاظ عديدة، لذلك ورد التحذير منه، وإذا كثر التحذير دل على أن الأمر واقع أو سيقع.

الثالث: والنصوص الواردة في القرآن والسنة تتضمن التحذير من اتباع السبل وهي الأهواء والفرق.

من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا**﴾ [**آل عمران**: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿**وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [**الأنفال**: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ [**آل عمران**: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾[**الشورى**: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [**الأنعام**: ١٥٣].

وقد شرح النبي ﷺ هذه الآية شرحًا بينًا مفصلاً، بأن خط خطًا طويلاً

ـ مستقيمًا ـ ثم خط خطوطًا تتفرع عن هذا الخط وتخرج عنه، فبيّن ﷺ أن هذا صراط الله، وهذه السبل(١) هي الجواد التي تخرج عن السبيل الأساسية. وأنه سيكون على سبل الهلاك دعاة يدعون إلى سبل الشيطان، فمن أطاعهم قذفوه في مهاوي الهلكة(٢).

رابعًا: وكذلك نهانا الله سبحانه وتعالى عن التنازع فقال: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [**الأنفال**: ٤٦]. والتنازع قد وقع في طوائف من هذه الأمة، وافترقت به الفرق.

خامسًا: كذلك توعد الله سبحانه وتعالى الذين يخرجون عن سبيل المؤمنين، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [**النساء**: ١١٥]. وقد حصلت المشاقة لله ولرسوله واتباع غير سبيل المؤمنين من أهل النفاق والشقاق والافتراق، نسأل الله العافية.

وسبيل المؤمنين هو سبيل أهل السنة والجماعة.

سادسًا: كما أن النبي ﷺ رتّب أحكامًا على المفارقة بدليل أنها ستقع، فقد حذّر من مفارقة الجماعة في مثل قوله ﷺ: «**لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(٣).

---

(١) جاء ذلك في أحاديث من طرق صحح بعضها الحاكم ووافقه الذهبي والألباني. السنة لابن أبي عاصم ١/ ١٣، ١٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) متفق عليه، البخاري ٤/ ٣١٧، ومسلم ٥/ ١٠٦.

سابعًا: وقد أخبر النبي ﷺ بالافتراق في الأمة، حين أخبر عن الخوارج، وأنهم سيخرجون عن هذه الأمة، وأنهم يمرقون من الدين، والمروق قد لا يعني الكفر أو الخروج من الملة بالكلية، إنما المروق قد يعني الخروج من أصل الإسلام، أو عن حدوده، أو بعض ذلك، والخروج يكون بالكفر، أو ما دون الكفر، وقد يعني الخروج من أمة الإسلام وهي جماعته، أو من السنة التي عليها أهل السنة وهم أهل الإسلام في الحقيقة.

ثامنًا: والنبي ﷺ أمر بقتل المفارق للجماعة، كما مرّ في الحديث السابق، وهذا تشريع في أمر لابد حاصل، إذ لا يكون تشريع النبي ﷺ ترفًا أو افتراضًا.

تاسعًا: كذلك بيَّن النبي ﷺ أن من مات مفارقًا للجماعة مات ميتة جاهلية[1]، وأن الفرقة عذاب، وأن الشذوذ هلكة، وغير ذلك من الأمور والمعاني التي تدل على أن الفرقة واقعة، والتحذير منها لم يكن عبثًا، إنما لأنها ستقع ابتلاءً ولا تقع إلا والناس على بصيرة، يعرفون الحق وهو الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، والباحثون عن الحق يميزون بين الحق والباطل، فمن اهتدى اهتدى على بصيرة، ومن ضل بعد ذلك ضل على علم، نسأل الله العافية من الضلالة.

وبعد: فإن هذه الأدلة قاطعة على صحة حدوث الافتراق في الأمة، ابتلاءً وفتنة، وأنه من سنن الله التي لا تتبدل، وأن الافتراق كله مذموم، وعلى المسلم أن يعرفه، ويعرف أهله، فيتجنب مواطن الزلل.

* * * * *

---

(١) جاء ذلك في الحديث الذي رواه مسلم وغيره؛ وسبق تخريجه.

المسألة الرابعة

تاريخ الافتراق في الإسلام

والحديث عن تاريخ الافتراق مفيد؛ لأن في ما حدث في أول الإسلام عبرة، ولا أستطيع أن أتكلم عن تاريخ الافتراق تفصيلاً، لكني سأقف على بعض النقاط التي هي مواطن عبرة، ولابد من تصحيح المفهوم فيها، وفيما أخطأ فيه كثير من الناس في العصر الحاضر:

أولاً: عقائد الافتراق التي ظهرت في الأمة كانت مجرد أفكار وعقائد مغمورة لا تسمع إلا همسًا! وهي العقائد السبئية (عقائد الشيعة وأصول الخوارج) وهي أول ما سمع المسلمون، وأول ما سمع الصحابة من عقائد الافتراق وبذور الفرقة بين المسلمين، يهمس بها أصحابها همسًا، وأول من قال بها شخص غريب الأطوار، اختلف في اسمه، والأشهر أنه ابن السوداء: عبدالله بن سبأ، فقال بها، وأخذ يوسوس بها بين المسلمين، فاعتنقها كثير من المنافقين، ومن الكائدين الذين كادوا للإسلام، ومن الجهلة وحدثاء السن، ومن الموتورين الذين ظهر الإسلام على بلادهم، وعلى أديانهم، وقوّض ملكهم - بحمد الله - ومن حديثي الإسلام من الفرس والأعراب ونحوهم؛ فاعتنقوا مقولات ابن سبأ، فسرت بين المسلمين سراً، حتى ظهرت منها الشيعة والخوارج.

هذا بالنسبة لأول العقائد ومقولات الفرق التي ظهرت بين المسلمين وهي تخالف بعض أصول الإسلام والسنة.

أما أول الفرق ظهوراً وافتراقًا عن إمام المسلمين وعن جماعتهم، فهي الخوارج، والخوارج نزعة نزعت من السبئية، وبعض الناس يظن أن السبئية شيء والخوارج شيء آخر، والحقيقة أن الخوارج نبتة من نبتات السبئية النكدة، كما أن الشيعة نبتة من نبتات السبئية النكدة. فالسبئية افترقت إلىٰ فرقتين رئيستين، هي الخوارج والشيعة. هذا ورغم ما بين الخوارج والشيعة من بعض الفوارق، إلا أن الأصل واحد، وكلها نشأت عن أحداث الفتنة علىٰ عثمان رضي الله عنه، التي أثارها ابن سبأ بأفكاره وعقائده وأعماله، فانبجست منها أخبث العقائد حينذاك وهي الخوارج والشيعة.

والفرق بين الخوارج والشيعة صنعه المبطلون إمعانًا في تفريق الأمة، بمعنىٰ أن ابن سبأ وأمثاله بذروا بذوراً تناسب طائفة من أهل الأهواء، وبذوراً أخرىٰ تناسب طائفة أخرىٰ، وجعلوا بينهم شيئًا من العداء، لتفترق الأمة كما يحدث الآن؛ حيث أوجد أعداء الإسلام ضد المسلمين ما يسمىٰ بلعبة اليمين واليسار، وقسموا المسلمين إلىٰ أحزاب؛ أحزاب يمين وأحزاب يسار، ولما استنفذت غرضها، جاءت لعبة العلمانية والأصولية، والتقدمية والرجعية، والأصالة والحداثة، وهكذا، وهذه اللعبة واحدة، منشؤها واحد، وأصل القائلين بها واحد، وغرضها واحد، وإن اختلفت الأشكال والمشارب، إذ كل هذه تمثل قوىٰ الباطل، وإن تعادت.

ثانيًا: أمر مهم لابد من التنبيه عليه؛ وهو أنه في تاريخ الافتراق لم يحصل من الصحابة افتراق البتة، وما حصل بين الصحابة إنما هو خلافات كانت تنتهي إما بالإجماع وإما بالخضوع لرأي الجماعة والالتفاف حول الإمام، هذا ما حصل بين الصحابة، ولم يحصل من صحابي أن كان مفترقًا

عن الجماعة، وليس فيهم من قال ببدعة، أو عمل محدثًا في الدين، إن الصحابة وهم الأئمة المقتدىٰ بهم في الدين، لم يحصل من أحد منهم أنه فارق الجماعة أبدًا، ولم يحصل أن أحدًا منهم أيضًا يُعد قوله أصلاً من البدع، ولا أصلاً في الافتراق، والذين نسبوا بعض المقولات أو نسبوا بعض الفرق إلىٰ بعض الصحابة، إنما كذبوا عليهم، وافتروا عليهم أكبر الفرية، فلا صحة لما يقال من أن علي بن أبي طالب هو أصل التشيع، أو أن أبا ذر هو أصل الاشتراكية، أو أن أهل الصُّفة هم أصل الصوفية، أو أن معاوية هو أصل الجبرية، أو أن أبا الدرداء أصل القدرية، أو أن فلانًا من الصحابة هو أصل كذا من المقولات، أو المحدثات أو البدع، أو المواقف الشاذة، بل كل ذلك، إنما هو من الباطل المحض(١).

ثم إن الافتراق لم يحدث إلا بعد مقتل عثمان، فلم يحدث افتراق ظاهر في عهد عثمان، وحينما حدثت الفتنة بين المسلمين في عهد علي، خرجت خارجة الخوارج، وخارجة الشيعة، أما في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر، بل حتىٰ في عهد عثمان، لم يحدث افتراق حقيقي البتة، ثم إن الصحابة قاوموا الافتراق، ولا يظن ظان أن الصحابة غفلوا، أو أنهم جهلوا، أو أنهم لم يتنبهوا لمسائل الافتراق، سواءً كانت أفكارًا أو عقائد، أو مواقف أو أعمالاً، بل لقد وقفوا ضد الافتراق أشد الوقوف، وأبلوا في ذلك بلاءً حسنًا بحزم وقوة، لكن أمر الله لابد أن يقع.

* * * *

(١) من الباطل زعم بعض المتصوفة أن أصل بدعهم عن أهل الصفة من أصحاب النبي - ﷺ - وحاشاهم. لكن نقول لهؤلاء المفترين: كونوا علىٰ هدي أصحاب الصفة إن كنتم صادقين.

رؤوس البدع

امتداداً للحديث عن تاريخ الافتراق فمن المناسب أن نشير إلىٰ أصول البدع، أي الرؤوس التي انبثقت منها الفرق، ثم انبثق عنها الافتراق، وأقصد بذلك الأشخاص الذين تولوا كبرهم وصاروا أئمة ضلالة إلىٰ يوم القيامة، وبعدهم انفتح باب الافتراق، وكثر المضللون، فأذكر منهم:

١ ـ أول أولئك: ابن السوداء، وهو ابن سبأ اليهودي الذي ادعىٰ الإسلام، وأتباعه وأشياعه، وقد بدأت مقولاته سنة (٣٤هـ) تقريباً، وهذا يجمع بين بدعة الخوارج وبدعة الشيعة.

٢ ـ ثم بعد ذلك أظهر معبد الجهني (ت ٨٠هـ) بدعة القول بالقدر سنة (٦٤هـ) تقريباً، حيث أنكر علم الله السابق وتقديره لأفعال العباد وقال بها علىٰ نحو معلن، وصار له أثر وأتباع، لكن بدعته وجدت مقاومة شديدة من السلف آنذاك وعلىٰ رأسهم متأخرو الصحابة كابن عمر.

٣ ـ ثم جاء بعده غيلان الدمشقي وقد تولىٰ كبره في إثارة كثير من القضايا حول القدر ـ قبل سنة ٩٨هـ ـ وأيضاً حول التأويل والتعطيل لبعض أسماء الله وصفاته والإرجاء، فتصدىٰ له السلف. وممن جادل غيلان الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز، وقد أقام عليه الحجة، فالتزم الصمت حتىٰ مات عمر، ثم نكص علىٰ عقبيه، وهذه سمة غالبة في أهل الافتراق والأهواء، أي أنهم لا يتوبون، ولو انقطعت حجة أحدهم حاد ونكص، وغيلان قتل سنة (١٠٥هـ) بعدما استتيب ولم يتب.

٤ ـ ثم جاء بعده الجعد بن درهم المقتول سنة (١٢٤هـ) فتوسع في هذه المقولات، وجمع بين مقولات القدرية ومقولات المعطلة والمؤولة، وأثار الشبهات بين المسلمين، حتىٰ انبرىٰ له كثير من السلف، واستتابوه، ولم يتب، وجادلوه وأقاموا عليه الحجة، فلم يرجع، فلما افتتن به الناس، حكموا بضرورة قتله درءًا للفتنة، فقتله خالد بن عبدالله القسري في قصته المشهورة حينما قال بعد خطبته في عيد الأضحىٰ: «ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مُضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسىٰ تكليمًا. . إلخ» من المقولات، ثم نزل من المنبر وقتله سنة (١٢٤هـ).

٥ ـ وبعد ذلك انطفأت الفتنة بعض الوقت، حتىٰ ظهرت علىٰ يد الجهم بن صفوان، الذي جمع مساوئ الأولين وضلالاتهم وزاد عليها، وخرجت عنه بدعة الجهمية، وبدع الجهمية ومقولاتها، وانحرافاتها كفريات، وقد قال الجهم بأكثر مقولات غيلان والجعد، وزاد عليه بالتعطيل والتأويل والإرجاء والجبر وإنكار الكلام والاستواء والعلو والرؤية، وقتل حدًّا سنة (١٢٨هـ).

٦ ـ وظهر في وقته واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وقد وضعا أصول المعتزلة القدرية.

ثم انفتح باب الافتراق، فبدأت الرافضة تعلن عقائدها، وانقسمت إلىٰ فرق كثيرة، وظهر المشبهة من الرافضة علىٰ يد داود الجواربي، وهشام بن الحكم، وهشام الجواليقي، وهؤلاء هم أصول المشبهة الأوائل، وهم رافضة، ثم جاء المتكلمون، من الكلابية والأشعرية والماتريدية، ثم المتصوفة

والفلاسفة، فانفتح باب الافتراق علىٰ مصراعيه لكل ضالٍّ ومبتدع ومتبع للهوىٰ، وبقيت أصول الفرق بين المسلمين.

فلا تزال أصول الفرق بين المسلمين باقية حتىٰ يومنا هذا، بل تتجدد بدع وحوادث جديدة تضيف إلىٰ الافتراق افتراقًا جديدًا بحسب أهواء الناس وتمرُّسهم في البدع والضلالات.

ويدعي بعض الناس عن جهل أو تجاهل أن الفرق انقرضت وصارت مطمورة في أحداث التاريخ وركام التراث!! وهذه مغالطة، فكل الفرق القديمة الكبرىٰ والخطيرة لا تزال موجودة بين ظهراني المسلمين، بل وتزيد كثرة وخطورة وانحرافًا، فالرافضة وفرقها الباطلة، وبقية فرق الشيعة، والخوارج، والقدرية، والمعتزلة، والجهمية، وأهل الكلام، والمتصوفة، والفلاسفة، كلها لا تزال تنخر في الأمة، بل بدأت تخرج أعناقها، وتروج عقائدها، بأسلوب أنكىٰ علىٰ الأمة من أي وقت مضىٰ، لما تدعيه من التعالم والثقافة والفكر، ولقلة فقه أكثر المسلمين في الدين وجهلهم بالعقيدة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

*****

المسألة الخامسة

أسـبـاب الافـتـراق

وأسباب الافتراق لو حاولنا أن نستقرئها منذ أن بدأ الافتراق حتى يومنا هذا، لوجدناها كثيرة جدًا، لا تكاد تحصى، وكلّما تجددت للناس أفكار وثقافات وأهواء تجددت معها أسباب للافتراق، لكن هناك أسباب كبرى رئيسة، وتكاد تتفق عليها أصول الفرق قديمًا وحديثًا، ألخصها بما يلي:

أول أسباب الافتراق وأشدها نكاية على الأمة: كيد **الكائدين بأصنافهم من أهل الديانات**، كاليهود والنصارى والصابئة والمجوس والدهريين، وكذلك من الموتورين، أي الذين حقدوا على الإسلام والمسلمين؛ لأن الجهاد قضى على دولتهم، ومحا عزة أديانهم وهيمنة سلطانها من الأرض، كالفرس والروم، فهؤلاء منهم الذين بقوا على كفرهم وحقدهم على المسلمين والدين والإسلام، وآثروا النفاق والزندقة بإعلان الإسلام ظاهراً فقط، أو البقاء على دياناتهم مع دفع الجزية؛ حفاظًا على رقابهم، وإيثاراً للسلامة، للتعايش مع المسلمين، وهؤلاء هم أشد المعاول عملاً في الفتك بالمسلمين، والكيد لهم بالأفكار، وبث المبادىء والبدع والأهواء بينهم.

السبب الثاني: رؤوس أهل الأهواء الذين يجدون مصالح شخصية، أو شعوبية، في الافتراق، وكذلك أتباعهم من الغوغائية؛ فكثير من أتباع الفرق نجد أنهم يجدون في الفرق تحقيقًا لمصالح شخصية، إما شهوات، وإما أهواء، وإما أغراض عصبية، أو شعوبية، أو حزبية، أو قبلية، أو غيرها،

وربما بعضهم يقاتل على هذا الأمر لهوىٰ، أو لعصبية، هذا الصنف هم مادة وقود الفرق، فهم الذين يكثّرون أتباع تلك الفرق، ويجتمعون حولهم لتحقيق هذه المصالح، وهذه الفئة موجودة في كل زمان وفي كل مكان، فإنه متىٰ ما ظهر في الناس رأي شاذ، أو بدعة أو صاحب هوىٰ، فإنه يجد من الغوغاء، ومن أصحاب الأهواء وأصحاب الشهوات والأغراض الشخصية، من يتبعه لتحقيق ذلك، وما أكثرهم في كل زمان ـ لا كثَّرهم الله.

السبب الثالث: الجهل. والجهل داء عضال وقاسم مشترك يشكل كل الأسباب، لكن الجهل المقصود هنا هو عدم التفقه في الدين عقيدة وشريعة، وهو الجهل بالسنة وأصولها وقواعدها ومناهجها، وليس مجرد عدم تحصيل المعلومات؛ لأن الإنسان قد يكفيه أن يحصّل ما يحصّن به نفسه، وما يحفظ به دينه، ويكون بذلك عالمًا بدينه، ولو لم يتبحر في العلم، والعكس كذلك؛ قد يوجد من الناس من يعلم الشيء الكثير، وذهنه محشو بالمعلومات، لكنه يجهل بديهيات الأصول والقواعد الشرعية في الدين، فلا يفقه أصول العقيدة وأحكام الخلاف وأحكام الافتراق، وأحكام التعامل مع الافتراق، وأحكام التعامل مع الآخرين، وهذه مصيبة كبرىٰ أصيب بها كثير من الناس اليوم، وهي أن الواحد منهم توجد لديه معلومات شرعية، أو يكون ممن يتعلمون ويأخذون العلم الشرعي عن مصادر كثيرة، لكن تجده جاهلاً في العقيدة وفقه أحكام الإسلام، وفي الأحكام على الآخرين، وفي أحكام التعامل مع الناس، والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيُفسد من حيث لا يشعر. فالجهل مصيبة، والجهل سبب رئيسي لوجود الافتراق، والجهلاء هم مادة الفرق، وهم وقودها.

السبب الرابع: الخلل في منهج تلقي الدين، وأقصد بذلك أن أنه قد يوجد لدىٰ كثير من الناس ـ كما أسلفت ـ علم، وقد يطلع علىٰ كثير من الكتب، لكنه يجهل أو اختل عند منهج تلقي الدين، لأن تلقي الدين له منهج مأثور منذ عهد النبي ﷺ والصحابة والتابعين، وسلف الأمة، واقتفاه أئمة الهدىٰ إلىٰ يومنا هذا.

وهذا المنهج إنما هو العلم والعمل والاهتداء والاقتداء والسلوك والتعامل، وهو الإلمام بالقواعد الشرعية والأصول العامة أكثر من مجرد الإلمام بفرعيات الأحكام أو بكميات النصوص.

وذلك يتم بتلقي الدين عن القدوة، الأئمة العدول الثقات، وعن طلاب العلم الموثوق بهم وبعلمهم. وأن يؤخذ العلم بالتدرج النوعي والكمِّي حسب المدارك والاستعداد، والعلم الذي يحصَّل به الفقه في الدين هو العلم الشرعي المستمد من الكتاب والسنة والآثار الصحيحة عن أئمة الهدىٰ؛ فالكتب الثقافية والفكرية والأدبية والتاريخية ونحوها لا تفقه في الدين، إنما هي علوم وافدة مساعدة لمن أحسن انتقاءها.

والعدول عن هذا المنهج في تلقي الدين هو الذي أوقع الخوارج في بدعهم وفي خروجهم عن السنة والجماعة، وهو من أعظم أسباب انحراف جميع الفرق المفارقة للسنة والجماعة.

* * * * *

مظاهر الخلل في منهج التلقي

ومن مظاهر هذا الخلل في منهج التلقي التي يتبين بها المقصود:

١ - أخذ العلم عن غير أهله: وأقصد بذلك أن الناس صاروا يأخذون العلم عن كل من دعاهم إلى التعلم، وكل من رفع فوق رأسه راية الدعوة، وقال: أنا داعية، جعلوه إمامًا في الدين، وتلقوا عنه، وقد لا يفقه من الدين شيئًا، فلذلك ظهرت في العالم الإسلامي دعوات كبرى، ينضوي تحت لوائها الفئام من الناس خاصة الشباب، وقادتها ورؤساؤها جهلة في بديهيات الدين، فيفتون بغير علم، ويَضلون ويُضلون، وسبب ذلك أنهم وجدوا أتباعًا لهم يأخذون عنهم دون تروٍّ، ودون تثبت، ودون منهج صحيح سليم، ولا يتثبتون من حال القادة في كونهم أهلٌ لأخذ الدين أو التلقي عنهم، ثم إن كثيراً من الناس تجذبهم العواطف أكثر مما يجذبهم العلم والفقه، وهذا خطأ فادح، بمعنى أنه بمجرد أن يظهر داعية له شهرة وأثر في ناحية ما، يجعله الناس إمامًا في الدين، حتى لو لم يكن يعلم من السنة والفقه شيئًا، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: «**إن الله لا ينتزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعًا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناسٌ جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيَضلون ويُضلون**»[1].

ولا ينبغي أن يتصدر الدعوة إلى الله، ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا العلماء الأجلاء، الذين يفقهون الدين، ويأخذون عن أصوله،

---

(١) البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - الفتح ١٣/ ٢٨٢. وروي بألفاظ أخرى عند مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه وأبي داود.

علىٰ منهج سليم صحيح، وإلا فليس كل من حشي ذهنه بالمعلومات الثقافية والأفكار يكون إمامًا في الدين؛ لأنه قد يوجد من الفسقة ـ بل من الكفرة ـ من يعلم من فرعيات الدين الشيء الكثير، وقد وُجد من المستشرقين من يحفظ بعض الكتب الكبيرة في الفقه الإسلامي، بل حتىٰ منهم من يحفظ القرآن، ويحفظ صحيح البخاري، ويحفظ بعض السنن ونحو ذلك، فهذا الصنف يحفظ العلم لكن لا يفقه من الدين شيئًا، وكذا بعض من يدعي الإسلام، قد يكون عنده من المعلومات الشيء الكثير، لكن لا يفقه منهج التلقي والعمل والتعامل والتزام السنة، ولم يأخذ الدين علىٰ منهجه الصحيح، وعلىٰ العلماء الربانيين، فصار يفتي بغير علم، ويوجه بلا فقه، ويجمع بلا عقيدة سليمة.

٢ ـ من مظاهر الخلل في منهج التلقي وهو سببٌ للافتراق: الاستقلالية عن العلماء والأئمة، أي استقلالية بعض المتعلمين وبعض الدعاة وبعض الأحداث عن العلماء، فيكتفون بأخذ العلم عن الكتاب والشريط والمجلة والوسيلة، ويعزفون عن التلقي عن العلماء، وهذا منهج خطير بل هو بذرة خطيرة للافتراق، ولو رجعنا إلىٰ أسباب الافتراق في أول تاريخ السلام، كافتراق الخوارج والرافضة، لوجدنا أن من أهم أسباب وجود هذا الافتراق عند من ينتسبون للإسلام؛ لا أقصد أصحاب الأغراض أو المنافقين أو الزنادقة، لكن ممن ينتسبون للإسلام، أعظم أسباب هلاكهم وافتراقهم، واستقلاليتهم وانعزالهم عن الصحابة، واستهانتهم بهم، وترك أخذ الدين عنهم وأخذهم العلم عن أنفسهم وعن بعضهم، قالوا: علمنا القرآن، وعلمنا السنة، فلسنا بحاجة إلىٰ الرجال، يعنون علماء الصحابة والتابعين. فمن هنا استقلوا وخرجوا عن منهج التلقي الصحيح، وعن سبيل المؤمنين

المأخوذ عن النبي ﷺ بالقدوة والاهتداء، والذي أخذه التابعون عن الصحابة بهذا الطريق، ثم عنهم السلف بهذا الطريق يأخذ الأئمة العدول جيلاً عن جيل.

وكما ورد عن النبي ﷺ أنه «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله»[1] والعدول هم الحفاظ الثقات، الذين يأخذون الدين عن أئمته، ثم ينقلونه إلىٰ الآخرين.

فالاستقلالية عن العلماء خطر كبير جداً؛ لأن العلم إنما تكون بركته وتلقيه الصحيح عن العلماء، والعلماء لا يمكن أن ينقطعوا في أي زمان.

ودعوىٰ بعض الناس أن في العلماء نقصًا وتقصيراً، دعوىٰ مضللة، نعم، العلماء بشر، لا يخلون من نقص وتقصير، لكنهم مع ذلك في جملتهم هم القدوة، وهم الحجة، وهم الذين جعل الله الدين يؤخذ عن طريقهم، وهم أهل الذكر، وهم الراسخون، وهم أئمة الهدىٰ، وهم المؤمنون الذين من تخلف عن سبيلهم هلك، وهم الجماعة، ومن فارقهم هلك، وتلقي العلم من غير أهله خطر علىٰ أصحابه، وعلىٰ الأمة.

٣ - من مظاهر الخلل عند بعض المتعالمين والدعاة: ازدراء العلماء واحتقارهم والتعالي عليهم، وهذه مظاهر شاذة مع الأسف بدأنا نرىٰ نماذج منها، وهذا أمر مقلق، يجب أن نتناصح فيه، وما لم يعالجه طلاب العلم والعلماء فالأمر خطير.

٤ - تتلمذ الأحداث أي صغار السن علىٰ بعضهم، أو علىٰ طلاب

(١) أخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث ٢٨/ ٢٩ وابن عدي في الكامل ١/ ١٥٢، ١٥٣، ٣/ ٩٠٢ وحسنه، وصححه العلائي في بغية الملتمس ٣٤، ٣٥.

العلم الذين هم دون من هم أعلم منهم، بمعنىٰ التتلمذ الكامل وترك المشايخ الكبار والانقطاع عنهم، ولا أقصد بذلك أنه لا يجوز أخذ العلم عن أي طالب علم، بل من أجاد أي علم من العلوم الشرعية وكان صالحًا أُخِذ عنه، لكن لا يعني الاستغناء به عمن هو أعلم منه، أو الانقطاع إليه وترك المشايخ الكبار، وهذا هو مكمن الانحراف، أي أن يستغني بعض الشباب في أخذ علمه وقدوته ودعوته وسلوكه وهديه ببعض طلاب العلم عن العلماء الذين هم أجل وأكبر وأعلم، وهذا مسلك خطير، بل أخطر منه أن يكون الصغار بعضهم شيوخًا لبعض في العلم، ولا أقصد بذلك عدم جواز المجالسة والمخالطة والمشاركة في الدعوة إلىٰ الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن هذا أمر مطلوب، والاجتماع علىٰ ذلك مطلب شرعي ضروري، لكن أقصد أن تلقي العلم بهذه الطريقة الخاطئة، والاستغناء بها عن أخذه عن هؤلاء العلماء، من سمات أهل الفرق والأهواء، وهذا مسلك خطير، وهو من أبرز أسباب وجود الافتراق؛ لأن هذا يؤدي إلىٰ حصر أخذ الدين عن أناس معينين، والتحزُّب لهم، والتعصب لهم، لا سيما وهم قد لا تتوفر فيهم صفات العالم القدوة، ومن ثم تكون هذا بذوراً للافتراق.

السبب الخامس: ومن أسباب الافتراق: دعوىٰ اتباع الأئمة علىٰ هدىٰ وبصيرة تقليداً، وهذه شنشنة نسمعها كثيراً من بعض المتعالمين، فيقولون: إن اتباع المشايخ تقليد، والتقليد لا يجوز في الدين، وهم رجال ونحن رجال، وعلينا أن نجتهد كما اجتهدوا، ونحن نملك الوسائل والكتب، والآن توفرت وسائل العلم، فما لنا وأخذ العلم عن العلماء، بل أخذ العلم عن العلماء تقليد، والتقليد، باطل، ومن هذا المنطلق تنشأ المفارقة عند من يذهب إلىٰ هذا القول.

ونقول لهؤلاء: نعم، التقليد باطل، لكن ما مفهوم التقليد؟ هناك فرق بين التقليد وبين الاتباع والاهتداء، الاتباع واجب شرعًا، لأن عامة المسلمين، بل كثير من طلاب العلم لا يجيدون ممارسة الاجتهاد أو الأخذ بأصول العلم علىٰ الطريقة الصحيحة، فممن يأخذون العلم؟ وكيف يأخذون أصول التلقي ومنهج السنة ومنهج السلف الصالح ومنهج الأئمة؟ لا يمكن أن يأخذوه إلا باتباع العلماء، والاتباع ليس بتقليد، وإلا فهذا يعني أن كل إنسان هو إمام نفسه، ومن هنا يكون كل إنسان فرقة، وتكون الفرق بعدد الناس، وهذا باطل قطعًا، إذًا اتباع الأئمة علىٰ هدىٰ وبصيرة ليس بتقليد، إنما الاتباع الأعمىٰ هو التقليد؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿**فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون**﴾.

ومن المظاهر الخطيرة: التمشيخ، أو التتلمذ علىٰ مجرد الوسائل، وهو أن يكتفي طالب العلم بأخذ العلم عن الكتب وينطوي وينعزل عن أهل العلم، وعن أهل الخير، وأهل الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعن العلماء، ويقول: أنا أتلقىٰ العلم عن الكتب وعن الوسائل، ولدي الشريط، والكتاب والإذاعة.. إلخ، من الوسائل المقروءة والمسموعة ثم يقول: أنا بإمكاني أن أتعلم بهذه الوسائل.

أقول: لا شك أن هذه الوسائل نعمة، لكنها أيضًا سلاح ذو حدين، فالاكتفاء بأخذ العلوم الشرعية عنها إنما هو مسلك زلل، وهو من أسباب الافتراق؛ لأن هذا ينمي العزلة المحرمة، أو يُوجدُ أشخاصًا صورًا ممسوخة لأهل العلم، يأخذون العلم علىٰ غير أصوله، وعلىٰ غير قواعده، بغير اهتداء وبغير اقتداء، ويأخذون العلم بمشاربهم هم، وبأهوائهم،

وبأمزجتهم، وبأحكامهم المفردة، فإذا ظهرت الأحداث والفتن شذّوا عن العلماء، وازدروا آراءهم، والإنسان مهما بلغ من الذكاء والقدرة والتأهل للعلم، فإنه ـ وحده ـ لا يستطيع في كثير من الأمور أن يصل إلىٰ الحق ما لم يعرف ما عليه السلف وما عليه أهل العلم في وقته، ويعالج قضايا العلم وقضايا الأمة والأحداث مع العلماء، فإنه إن لم يفعل ذلك فقد يَهلك ويُهلك.

بل إن الوسائل هذه أوجدت عندنا صوراً ممسوخة لمن يسمون بالمثقفين، وعندهم من المعلومات ما يعجب الناس ويبهرهم لكنهم لا يقرون بأصل، ولا يفهمون منهج السلف، ويجدون من يقتدي بهم بغير علم، وهذا الأمر أو هذه الظاهرة كثرت بشكل مزعج، حتىٰ وجد من هذا الصنف أناس يتصدرون الدعوة إلىٰ الله، وتوجيه الشباب علىٰ هذا النمط، لمجرد أنهم يملكون من المعرفة والثقافة العامة ما يبهر السُّذج، وعندهم كمٌّ هائل من المعلومات الشرعية، دون معرفة للضوابط، ولا للأصول، ولا للمناهج، ولا لكيفيات التطبيق وكيفيات العمل، ولا لطريقة أئمة الدين في تناول مسائل العلم وتطبيقها علىٰ النوازل والحوادث.

السبب السادس: من أسباب الافتراق: التقصير في فهم فقه الخلاف.

وأقصد بفقه الخلاف: معرفة أحكام الخلاف بين المسلمين، وماذا يترتب علىٰ وقوع الخلاف؟ وما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز؟، ومتىٰ نطلق عليه الكفر أو الفسوق؟ وهل إطلاق الحكم علىٰ المخالف أو الموقف منه متروك لكل أحد؟ وتفصيل ذلك أمر يجهله كثير من الناس، ومن هنا قد يحدث الافتراق في أمور لا يجوز الافتراق عليها.

وكذلك التقصير في فقه الاجتماع والجماعة، وهو فقه مهم جداً قد غفل عنه الكثير من الذين يأخذون العلوم الشرعية، كما غفلوا عن المقاصد العظمىٰ للدين في الاجتماع! اجتماع الأمة وجمع الشمل وفقه الجماعة، وأكثرهم لا يفقه محاذير الافتراق، وكيف يكون؟ ومحاذير الفتن، وما توصل إليه؟ ولا يُحسن التفريق بين الثوابت وبين المتغيرات من الأحكام والأصول.

وهذا الصنف وسمتهم الجهل بقواعد الشرع العامة، وبمقاصد الشرع العامة، مثل قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد، إن المشقة تجلب التيسير، ومسألة متىٰ يكون للناس في أمر من الأمور رخصة؟ومتىٰ يكون لهم ضرورة؟ واللجوء إلىٰ الضرورة كيف يكون؟ وأحكام الفتن، وأحكام السلم، ولا يجيدون أحكام التعامل مع المخالفين، ولا أحكام التعامل مع العلماء، ولا أحكام التعامل مع ولاة الأمور، لذلك نجد كثيراً من الناس لا يُفرق في كلامه وأحكامه بين ظروف الشدة والفتن، وبين ظروف السلم والأمن، وهذا خلل كبير، وسبب للافتراق.

وأضرب مثالاً لذلك ما حدث في ما شجر بين إخواننا الأفغان، إن ما حدث من النزاع بينهم فتنة، فالمتبصر يدرك أن المسألة ليست صراعًا بين الحق والباطل من كل وجه، أو الصراع ربما لم يكن عقائديًّا من كل وجه، ولم يكن هناك دليلٌ قطعيٌّ علىٰ أن الحق مع إحدىٰ الطائفتين، إنما قد يَترجّح الحق مع إحدىٰ الطائفتين عند فريق من الناس، وآخر لا يسلم له، فكان مقتضىٰ الحال التثبت، والسعي للإصلاح، وإطفاء الفتنة أولاً، والرجوع في ذلك إلىٰ أهل العلم، فقد تبين أن انحياز البعض إلىٰ فئة مطلقًا ليس

بصائب.

لكن تكلم في الفتنة من لا يفقه أحكام الكلام في الفتنة، ومتىٰ يكون الكلام مناسبًا ومتىٰ لا يكون؟ ومتىٰ يجوز الحديث عن الأشخاص والحكم عليهم؟ ومتىٰ لا يجوز؟ ولا بصيرة له بفقه المصالح الكبرىٰ للأمة، والمصالح المعتبرة في جمع الشمل، وجمع الكلمة والإصلاح، وضرورة السكوت إذا كان الكلام يُشعل الفتن، والإعراض والكف عما يشجر بين المسلمين أثناء الفتن، ودرء المفاسد. . . إلىٰ آخره، وقد ولج كثير من الناس علىٰ غير هدىٰ ولا بصيرة في هذا الأمر، ولم يهتدوا بكلام أهل العلم، ولم يسترشدوا بالمشايخ وهم بين ظهرانيهم، وكان جهد كثير منهم ينصبّ علىٰ محاولة إقناع المشايخ بوجهة نظره، وأن يحجبهم عن سماع الرأي المقابل.

السبب السابع: التشدد والتعمق في الدين، وهو من أعظم الأسباب.

والتشدد يقصد به، التضييق علىٰ النفس، أو علىٰ الناس، في الأحكام الشرعية، أو المواقف تجاه الآخرين، أو التعامل معهم بما لا تقتضيه قواعد الشرع ومقاصد الدين؛ لأن الدين مبني علىٰ الأخذ بالأحكام الشرعية، مع مراعاة التيسير ودفع المشقة والأخذ بالرخص في مواطنها، ودرء الحدود بالشبهات، وإحسان الظن بالناس، والإشفاق عليهم، والإحسان إليهم، والنصح لهم، والعفو عنهم، والتماس الأعذار لهم، هذا هو الأصل، والخروج عنه لغير مصلحة راجحة مقدرة عند أهل الفقه في الدين يُعد من التشديد المنهي عنه في قول النبي ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من

الدلجة»[١]، وقد يقول قائل: كيف نفرق بين التشدد المذموم والتمسك المشروع؟ فأقول: إن العبرة بهدي الرسول ﷺ، فهو الأنموذج الأعلىٰ، وعليه سار الصحابة والتابعون وأئمة الهدىٰ، وهو سمت العلماء المقتدىٰ بهم، وفي يومنا هذا توزن الأمور بمن كان علىٰ السنة من خلال أمور:

(أ) العلماء العاملون المهتدون، فهم القدوة والمثل الأعلىٰ، فمن زاد علىٰ هديهم وعلىٰ سمتهم في الأحكام والمواقف، وفي الهدي والسلوك، فهو المتشدد إن كان غاليًا، والمقصر والمفرط إن كان متساهلاً.

(ب) الخروج عن مقتضىٰ التيسير وإيقاع المسلمين في العنت والحرج في أمور دينهم، وأقصد المسلمين الذين هم علىٰ السنة ـ إذ لا عبرة بالفساق وأهل الفجور ـ فمن أوقع المؤمنين في حرج في دينهم، أو شدد عليهم ولم يسلك مسلك التيسير في أمورهم التي يضطرون إليها فهو متشدد.

(ج) ومن علامات التشدد: التسرع في إطلاق الأحكام، إذ بمجرد أن يسمع أحدهم قضية أو حادثة أو خبراً أو مقولة ما، يحكم علىٰ صاحبها غيابيًّا، أو يحكم قبل أن يتثبت، أو يحكم باللوازم، كأن يقول: (إذا كان فلان قد قال كذا فهو كافر) بدون نقاش، ومثل قولهم: (ومن لم يُكفر فلانًا فهو كافر) وربما لم يتبين له كفر فلان ومثل قولهم: (فلان رأىٰ بدعة فلم ينكرها، أو تنتشر بين قومه فلم يغيرها، إذًا فهو مبتدع)، وهكذا، فنزعة إطلاق الأحكام والإلزامات في الأقوال، والإكثار من التكفير بما يخرج عن سمت العلماء وحكمهم ورأيهم، هذا مظهر بارز من مظاهر التشدد في الدين.

---

(١) صحيح البخاري ـ الإيمان ـ الحديث ٣٩ فتح الباري ١/ ٩٣.

(د) ومن علامات التشدد الممقوت: الحكم على القلوب وإساءة الظن، والتوقف في مجهول الحال والمستور، والبراء على المسائل الخلافية.

فالتشدد في الدين سبب رئيس من أسباب الافتراق، وهو الذي افترقت به الخوارج عن الأمة، ثم ما تلاها من فرق وأهواء.

السبب الثامن: من أسباب الافتراق: **الابتداع، والبدع في الدين**، سواء في العقائد والعبادات والأحكام أو غيرها، ويتلخص ذلك في: اعتقاد ما لم يرد في القرآن والسنة، أو التعبد بما لم يشرعه الله ورسوله اعتقادًا أو قولاً أو عملاً. وهذا أمر معلوم وواضح لا يحتاج إلى مزيد من التفصيل.

السبب التاسع: من أسباب الافتراق **العصبيات بشتى أصنافها وأنواعها**، سواءً كانت مذهبية أو عرقية أو شعوبية أو قبلية أو حزبية أو شعارات أو غيرها، وأخطر تلكم العصبيات هي ما يكون في مجال الدعوة، لأنه يُلبِّس على الناس، وتكون هذه العصبيات في الدعوة مبررة باسم الدين.

وهذه السمة من أبرز السمات في أكثر الدعوات الإسلامية المعاصرة التي يقل في أتباعها وقادتها الفقه في الدين، وتعتمد على الفكر والثقافة والحركة أكثر من اعتمادها على العلوم الشرعية والعلماء.

السبب العاشر: من الأسباب الكبرى للافتراق قديمًا وحديثًا **تأثر المسلمين بالأفكار والفلسفات الوافدة من بلاد الكفار** على المسلمين، أيًا كان نوع هذه الأفكار والفلسفات، ما دامت تتعلق بأمور الدين أو الأحكام أو العادات والأخلاق، وهو نوع من اتباع سنن السابقين الذي أخبر به النبي ﷺ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم...»**. الحديث سبق تخريجه.

ولذلك تجد كل فرقة في الإسلام تكون قد استحدثت بعض أصولها أو

أكثرها من الملل السابقة؛ فالرافضة أخذت عن اليهود والمجوس، والجهمية والمعتزلة عن الصابئة وفلاسفة اليونان، والقدرية عن النصارىٰ، وهكذا.

السبب الحادي عشر: من الأسباب للافتراق والتي حدثت بعد القرون الثلاثة الفاضلة، هي **دعاوى التجديد في الدين**، وقد صح عن النبي ﷺ: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل سنة من يجدد لها دينها»**[1]. والمفهوم الحقيقي للتجديد إنما يعني استئناف العمل بالدين اعتقاداً وعملاً، وإحياء ما اندثر من السنن، وإماتة ما ابتدع من البدع والمحدثات، كما صنع المجددون من أئمة الدين في تاريخ المسلمين إلىٰ يومنا، حيث كانوا يجددون العمل بالسنة وهدي السلف الصالح في العلم والعمل، كما فعل عمر بن عبدالعزيز والإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية والإمام محمد بن عبدالوهاب وغيرهم من أئمة السنة.

وليس التجديد وضع أصول وقواعد ومناهج جديدة للدين، كما يزعم كثير من المفكرين والكتاب، فيما بين وقت وآخر يظهر علىٰ المسلمين بلية يدعي صاحبها أنه يريد أن يجدد للناس أمر دينهم، وقد يكون هذا المجدد ينسف بتجديده قواعد أهل العلم وما عليه أهل السنة والجماعة في المناهج والأصول.

وهذه الدعاوىٰ التي تدعو إلىٰ الافتراق كثرت في الآونة الأخيرة في مجال الدعوات المعاصرة، وقد كثر الذين يدعون إلىٰ التجديد، وليتهم قصدوا بالتجديد تجديد أمور الحياة والوسائل والأساليب والأسباب، هذا

---

(١) أخرجه أبو داود، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة، وهو حديث صحيح، راجع صحيح الجامع الصغير رقم (١٨٧٠).

أمر بدهي وهو من سنن الله في خلقه، لكنهم قصدوا بالتجديد. تجديد الأصول والمناهج في الدين، وتجديد أصول العلوم الشرعية وما استقر عند الأئمة في الدين ومناهج الفقه في الدين ومآخذ الأحكام من النصوص وغير ذلك مما هو من سبيل المؤمنين الذي لا يجوز العدول عنه كما قال تعالىٰ: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾[1]، وهذا أمر خطير ينسف كل ما كان عليه أهل السنة والجماعة من الأصول التي أبقتهم علىٰ هدي النبي ﷺ وأصحابه والتابعين والقرون الفاضلة، وذلك النوع من التجديد إنما هو اتباع غير سبيل المؤمنين الذي حذرنا الله منه.

السبب الثاني عشر: التساهل في مقاومة ومحاربة مظاهر البدع في المسلمين، بمعنىٰ أنه قد تظهر بعض البدع فيغفل عنها الناس، ويتساهلون فيها، ثم تنمو وتزيد وتكثر، وقد تظهر بعض البدع أول أمرها بمظاهر مُلبّسة، تظهر علىٰ شكل عادات معينة أو أحوال معينة، فتأخذ تبريرات وأشكالاً وأسماء أخرىٰ غير أسماء البدع حتىٰ تستقر، ثم تتحول مع مرور الزمن إلىٰ بدع، ثم بعد ذلك ينزع أتباعها إلىٰ الفرقة أو الافتراق عن الدين وعن الأمة، وأغلب البدع وبذور الافتراق في التاريخ نشأت بهذا التدرج وهي من حيل الشيطان علىٰ الأمم.

السبب الثالث عشر: كذلك من أسباب وقوع الأمة في الفرقة والتنازع: **ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،** وترك المناصحة لولاة الأمور والأئمة وذوي الشأن في الأمة، ووقوع المداهنة في الدين، أو سلوك مسلك التشاؤم

---

(١) النساء، آية: ١١٥.

واليأس من الإصلاح، أو التعبد بترك المناصحة للولاة كما تفعل الفرق وأهل الأهواء والحزبيات، وعدم قيام طائفة من الأمة في أداء النصيحة ودرء الفساد والافتراق عنها يوقعها في الذل والهوان وفساد ذات البين والفرقة، فالمناصحة باب عظيم من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، كما أوصى بذلك الرسول ﷺ: **«وأن تُناصحوا من ولاه الله أمركم»**(١) والمناصحة تزيل الغل من القلوب وهي قوة للخير وإعذار عند الله، أو دفع للبلاء والنقمة عن الأمة.

*****

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٢٠) وأحمد في المسند ٢/ ٣٢٧، ٣٦٠، وذكر النبي ﷺ: **«مناصحة ولاة الأمر من الثلاث التي لا يغل عليهم قلب مسلم»** رواه ابن حبان في صحيحه وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٤٠.

وأخيرًا: كيف نتوقى الافتراق؟

لا شك أن توقي الافتراق وسد ذرائعه قبل وقوعه خير من علاجه بعد وقوعه.

وينبغي أن نعرف أن توقي الافتراق يكون بتوقي الأسباب التي ذكرتها.

وهناك أمور أخرىٰ تكون سببًا للوقاية من الافتراق، وهي عامة وخاصة: فمن الأسباب العامة:

الاعتصام بالكتاب والسنة، وهذه قاعدة كبرىٰ لابد أن يندرج تحتها توصيات وأمور كثيرة، وهي الأسباب الخاصة:

١ ـ من ذلك: معرفة هدي النبي ﷺ والتمسك به، ومن فعل هذا سيهتدي إن شاء الله ويكون من دينه علىٰ بصيرة، ومن ثم يبتعد عن الافتراق أو النزوع إلىٰ الفرقة أو الوقوع فيها وهو لا يشعر.

٢ ـ من الأسباب الخاصة التي تقي من الافتراق: السير علىٰ نهج السلف الصالح، الصحابة والتابعين وأئمة الدين أهل السنة والجماعة.

٣ ـ التفقه في الدين بأخذه عن العلماء وبطريقته الصحيحة بمنهج أهل العلم.

٤ ـ ومنها: الالتفاف حول علماء الأمة، الأئمة المهتدين الذين تثق الأمة بدينهم وعلمهم وأمانتهم، وهم ـ بحمد الله ـ كثيرون ولا يمكن أن تفقدهم الأمة، ومن زعم أنهم يفقدون، فقد زعم أن الدين ينتهي، وهذا لا يصح؛ لأن الله تكفل بحفظه إلىٰ قيام الساعة، ولأن الأمة إنما تمثل بعلمائها،

وأهل السنة والجماعة لابد ظاهرون إلى قيام الساعة، وإنما يمثلهم أهل العلم والفقه في الدين، فمن ادعى في يوم من الأيام أنه يمكن أن يكون هناك فقد لأهل العلم، أو لا يوجد القدوة من العلماء تهتدي بهم الأمة، فقد زعم أنه ليس هناك طائفة منصورة ولا فرقة ناجية، وأن الحق ينقطع ويعمى عن الناس، وهذا يخالف قطعيات النصوص وبدهيات الدين.

٥ - ومنها: الحذر من التعالي على العلماء، أو الشذوذ عنهم بأي نوع من أنواع الشذوذ التي تؤدي إلى الفتنة أو المفارقة.

٦ - من ذلك أيضًا: ضرورة معالجة مظاهر الفرقة، خاصة عند بعض الأحداث أو المتعجلين والذين تخفى عليهم الحكمة في الدعوة، وينقصهم الفقه في الدين والتجارب.

٧ - الحرص على الجماعة والاجتماع والإصلاح بمعانيها العامة وبأصولها، إذ لابد أن يحرص كل مسلم وكل طالب علم بالأخص وكل داعية بشكل أخص، على الجماعة والاجتماع والإصلاح بين الدعاة وأهل الخير، وبين الناس وولاتهم، وعلى جمع الكلمة على البر والتقوى.

٨ - من أراد أن يعتصم بالسنة والجماعة وينجو - إن شاء الله - من الافتراق فعليه أن يلازم أهل العلم، ويلازم الصالحين من أهل التقوى والخير والاستقامة، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، ولا يضل عن الهدى رفيقهم وأنيسهم، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، والجماعة: من كان على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

٩ - ومن توقي الوقوع في الفرقة تجنب الحزبيات وإن كانت في الدعوة، وكذلك العصبيات أيًا كان نوعها ومصدرها؛ لأنها بذور للفرقة.

١٠- ومنه بذل النصيحة لولاة الأمور أبرارًا أو فجارًا، وكذلك بذل النصيحة للعامة؛ لأن النصيحة لولاة الأمور تتحقق فيها مصالح كبرىٰ للأمة، أو يكون بها الإعذار ودفع البلاد العام، ويرتفع بها الغل من القلوب، وتقام بها الحجة، وهي من وصايا النبي ﷺ العظمىٰ التي أمر أمته بالصبر عليها والاستمساك بها، وهي من نهج السلف الصالح الذي يميزهم عن أهل الأهواء والافتراق، والتقصير في مناصحة ولاة الأمر - أيًا كانوا - تفريط بحق الإسلام والمسلمين، ونزعة هوىٰ تؤذن بشر وفتنة.

١١ - ومنه: إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ فقه وبصيرة.

* * * * *

الخاتمة

توصية أخُص بها الشباب: بأنهم ينبغي أن يلتفوا حول العلماء وعلىٰ طلاب العلم الموثوقين، ويتلقوا عنهم الدين ويتفقهوا علىٰ أيديهم، ويحترموهم ويوقروهم، ويصدروا عن رأيهم في كل أمر ذي بال من أمور الأمة، ويلتزموا ما يقررونه في مصالح الأمة، وفي مشكلات المسلمين الكبرىٰ. وعليهم أن يلتزموا بتوجيهات أهل العلم والفقه والتجربة، تحقيقًا للمصلحة، وجمعًا للشمل، وصونًا من الفرقة. وذلك هو منهج السلف الصالح، وهو الهدىٰ، وهو الذي به نستطيع أن نقتدي بأئمة الدين أهل السنة وأهل الجماعة، وذلك هو سبيل المؤمنين، وهدي الصالحين والصراط المستقيم.

أسأل الله تعالىٰ أن يجمع كلمة المسلمين علىٰ الحق والخير والهدىٰ، وأن يوحد صفوفهم، وأن ينصرهم علىٰ أعدائهم، كما أسأله تعالىٰ أن يكفينا شر الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونعوذ به من شر الافتراق والأهواء والبدع.
وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم أجمعين.

* * * * *


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

المبحث الثاني

التشبه بالكافرين

* * * * *



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

تمهيد

قال الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٢٠]. وصح عن النبي ﷺ: **«لتتبعُنّ سنن من كان قبلكم شبرًا بشبرٍ وذِراعًا بذراعٍ، حتى لو دخلوا جُحْر ضبٍّ تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قل: فمن؟»**(١). وقال ﷺ: **«من تشبه بقوم فهو منهم»**(٢).

وبذلك يتبين لنا إن موضوع التشبه بالكافرين من أهم وأخطر الموضوعات، وقد اهتم به الإسلام غاية الإهتمام، حيث نهىٰ عنها وحذر من غوائلها.

والنبي ﷺ، وقد بلّغ الأمانة؛ وأدىٰ الرسالة؛ ونصح الأمة؛ وحذرها في أحاديث كثيرة، وفي مناسبات عديدة من التشبه بالكافرين جملة وتفصيلاً.

وقد وقعت طوائف من هذه الأمة في التشبه ، لكن تختلف درجات وقوعها فيه، وتتفاوت خطورة هذا الأمر ما بين زمن وزمن، وبين مكان وآخر، ولعلّي لا أُبالغ إذا قلت: **إن التشبه الذي وقع فيه المسلمون بالكافرين في هذا العصر أخطر من أي تشبه وقع للأمة في أي عصر مضَى.**

---

(١) أخرجاه في الصحيحين: فتح الباري ١٣/ ٣٠٠ ومسلم الحديث رقم (٢٦٦٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٥٠ وأبو داود بإسناد جيد، الحديث، رقم (٤٠٣١) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، الحديث رقم (٦٠٢٥).

*وهذا الموضوع رغم خطورته، أراه **من أقل الأمور اهتمامًا من قِبَل ذوي الشأن، وأهل العلم**، وأرىٰ أن بيانه الآن للمسلمين **من أهم الضروريات**، التي هي من واجبات طلاب العلم.

هذا وسأتناول موضوع التشبه بالكافرين من بعض الجوانب؛ لأنه متشعب وطويل؛ لكن يهمنا أن نفهم بعض الأصول والقواعد الضرورية، التي ينبغي لكل مسلم أن يَلُمّ بها، ليحذر من الوقوع في التشبه بالكافرين، في عقيدة أو في عبادة، أو في عادة أو في سلوك. ولعلي أقتصر علىٰ بعض الموضوعات التي يتسع لها الوقت.

* * * * *

الموضوع الأول
في مفـهـوم التـشـبـه

التـشبه لـغة : مـأخوذ مـن الُمشـابهـة ، وهي **المماثلة، والمحـاكاة، والتـقليد.** والتشبيه هو التمثيل ، والمتشابهات هي المتماثلات : يُقال : أشبه فلان فلانًا ، أي ماثله ، وحاكاه وقلده .

التشبه شرعًا الذي ورد النهي عنه في القرآن والسنة هو : **مماثلة الكافرين بشتى أصنافهم في عقائدهم، أو عبادتهم أو عاداتهم، أو في أنماط السلوك التي هي من خصائصهم.**

وكذلك **التشبه بغير الصالحين. وإن كانوا من المسلمين**، كالفسـاق والجهلة ، والأعراب الذين لم يكمل دينهم ، كما سيأتي بيانه .

إذن فنستطيع أن نقول على سبيل الإجمال : **إن ما لم يكن من خصائص الكفار، ولا من عقائدهم، ولا من عاداتهم، ولا من عباداتهم، ولم يعارض نصًّا أو أصلاً شرعيًّا، ولم يترتب عليه مفسدة، فإنه لا يكون من التشبه، وهذه قاعدة مجملة.**

* * * * *

الموضـوع الثـانـي
لمـاذا نهينـا عـن التشـبه بالكافـريـن؟

ابتداء ينبغي أن نفهم ـ كما هي القاعدة في الإسلام ـ أنّ الدين مبناه على التسليم؛ التسليم لله تعالى، والتسليم للرسول ﷺ.

والتسليم معناه: **تصديقُ خبر الله تعالى، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، وبصديق خبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، واتباع هديه.**

فإذا عرفنا هذه القاعدة فإنه ينبغي للمسلم:

أولاً: أن يسلِّم بكلّ ما جاء عن الرسول، صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: أن يمتثله، ومما جاء به: النهي عن مشابهة الكافرين.

ثالثًا: وبعد أن يسلِّم ويطمئنّ ويثق بخبر الله وشرعه ويمتثله، فإنه بعد ذلك **لا مانع من أن يلتمس التعليلات والأسباب..**

فلذلك نستطيع أن نقول: بأن أسباب النهي عن التشبه **بالكافرين** كثيرة، وأغلبها مما يدركه أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة، من ذلك:

أولاً: أن أعمال الكفار مبناها على الضلال والفساد، فإن أعمال الكفار مبناها على **الضلال والانحراف والفساد،** في عقائدهم، وفي عاداتهم، وفي عباداتهم وفي أعيادهم، وفي سلوكهم. **والصلاح استثناء**، ثم إذا وجد بينهم من الأمور الصالحة شيئًا، فإنما يكون مما لا يُؤجر عليه أحد منهم. كما قال تعالى: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ [**سورة الفرقان الآية:**

٢٣].

ثانيا: التشبه بالكافرين، يُوقع المسلم بالتبعية لهم، وفي هذا مشاقة لله تعالىٰ ولرسوله، ﷺ، واتباع لسبيل غير المؤمنين. وفي هذا وعيد شديد، قال تعالىٰ: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [سورة النساء الآية: ١١٥].

وثالثًا : التشابه بين المتشبه به، يُوقع شيئاً من المشاكلة بين المقلَّد والمقلِّد. بمعنىٰ التناسب الشكلي، والميول في القلب، والانصهار، والموافقة في الأقوال والأعمال، وهذا أمر مُخلٌّ بالإيمان، **لا ينبغي لمسلم أن يقع فيه.**

رابعًا: أن التشبه يُورث ـ في الغالب ـ الإعجاب بالكافرين، ومن ثم الاعجاب بدينهم، وعاداتهم، وسلوكهم، وأعمالهم، وما هم عليه من الباطل والفساد، وهذا الإعجاب لابد أن يُورث ازدراء السنن، وازدراء الحقّ والهُدىٰ الذي جاء به الرسول، ﷺ، والذي عليه السلف الصالح؛ **لأن من تشبه بقوم وافقهم، وَرَضِيَ بفعلهم، وأعجبه ذلك**، وبالعكس فإنه أيضًا لا يُعجبه الفعل، والقول المخالف.

وخامسًا: أن المشابهة تُورث المودة، والمحبّة والموالاة بين المتشابهين، فإن المسلم إذا قلَّد الكافر لابد أن يجد في نفسه **إلفة له**، وهذه الإلفة لابد أن تُورث المحبة، وتورث الرضا، والموالاة لغير المؤمنين، **والنفرة من الصالحين، المتقين العاملين بالسنة، المستقيمين على الدين**، وهذا أمر فطريٌّ، يُدركه كل عاقل، خاصة إذا شعر المقلّد بالغربة، أو شعر المقلد بما يسمىٰ بالانهزامية النفسية، فإنه بذلك إذا قلّد غيره فإنه يشعر بعظمة المقلَّد، وبالمودة له، والألفة والتناسب بينهما، ولو لم يكن من ذلك إلا التناسب الظاهر لكفىٰ، مع أن

التناسب الظاهر في الشكل، وفي العادة، وفي السلوك، **لابد أن يُورث التناسب الباطن**، وهذا أمر يُدركه كل من يتأمل مثل هذه الأمور في سلوك البشر. . .

*** ولأضرب لكم مثلاً في وجود التناسب والمحبة، والإلفة بين المتماثلين:**

لو أن إنسانًا ذهب إلىٰ بلد آخر، يكون هو فيه غريبًا، فإنه لو رأىٰ إنسانًا مثله يمشي في السوق يلبس كلباسه، ويتكلم بلغته، فإنه لابد أن يشعر نحوه بشيء من **المودة والإلفة** أكثر مما لو كان في بلده. إذن فالإنسان إذا شعر أنه مقلّد لآخر، فإن هذا التقليد لابد أن يقع في القلب له أثر، هذا في الحالات العادية، **فكيف لو قلّد المسلم الكافر عن إعجاب!** وهذا هو الحاصل، فإنه لا يمكن أن يقع التقليد من المسلم للكافر، إلا وأن يكون ذلك صادراً عن إعجاب، وعن تقليد، وعن محاكاة، وعن محبة، تُورث المودة والموالاة، كما نرىٰ من المتفرنجين من المسلمين.

وسادسا: نهينا عن التشبه؛ لأن مشابهة المسلم للكافرين في الغالب لابد أن تجعله في **مقام الذليل، والضعيف**، الذي يشعر بالصغار، والانهزامية، وهذا الذي عليه كثير من الذين يُقلّدون الكفار الآن. .

* * * * *

الموضـوع الثالـث
إشـارة إلـى بعـض القـواعـد

الضرورية التي بها نفهم المعيار في التشبه المذموم.

القـاعـدة الأولى: أن الرسـول، ﷺ، أخـبـر بخـبـره الصـادق الذي لا يتخلف، **أن هذه الامّة لابد أن تتبع سنن من كان قبلها من الأمم الأخرى**، وحديث الاتباع لسنن من كان قبلنا حديث صحيح، ورد في الصحّاح والسنن، من قوله، ﷺ: **«لتتبعُنّ سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعا بذراعٍ»**[1]. وغيرها من الأحاديث الكثيرة، التي تصل إلى حدّ الجزم، بأن هذه الأمة، **ستقع طوائف منها في تقليد الكافرين**، والسنن التي أخبر بها النبي، ﷺ، كما قال أهل العلم، تشمل العقائد، والعبادات، والأحكام، والعادات، والسلوك، والأعياد.

والمقصود بالذين من قبلنا مُفَسَّرٌ في أحاديث أخرى، عن النبي ﷺ، لا مجال لسردها هنا، إنما منها أنه فسرهم، ﷺ، بأنهم **فارس والروم**، وفسرهم بأنهم **أهل الكتاب اليهود، والنصارى**، وفسرهم بأنهم **الكفار**، على وجه الإطلاق، وفسّرهم **بالمشركين**، **وهذه النصوص يوافق بعضها بعضًا**. كما أن الذين سيقعون في اتباع سنن الكافرين من هذه الأمة، إنما هم الفرق؛ لأن النبي، ﷺ، أخبر **بأنه ستبقى طائفة من هذه الأمة على الحقّ ظاهرين، طائفة منصورة، يصدعون بالحقّ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لا يَضُرّهم من**

(١) سبق تخريجه في الصحيحين.

خذلهم، ولا من عاداهم، حتى تقوم الساعة، وهؤلاء هم الفرقة الناجية، ومن ضرورات نجاتها، وكونها على الحق، ألاّ تقع في **مشابهة الكافرين.**

فعلى هذا يكون إخبار النبي، ﷺ، عن الأمة أنها ستتبع سنن الأمم الهالكة إنما يعني **طوائف من هذه الأمة وهم** أهل الافتراق، الذين افترقوا عن أهل السنة والجماعة.

القاعدة الثانية: أن النبي، ﷺ، حينما أخبرنا بوقوع التشابه أو اتباع سنن الكافرين، **حذّر من هذا الأمر أشدّ التحذير.**

فأولاً: إخباره بذلك، يتضمن التحذير.

وثانيًا: ورد عن النبي، ﷺ، **التحذير من مشابهة الكافرين، جملة وتفصيلاً.**

* أما الجملة كقوله، ﷺ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»(١).

وكهذا الحديث الذي مرّ، «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»(٢). فهذا على وجه التحذير، والإخبار بوقوع المشابهة، وكذلك ورد في نصوص كثيرة، أن النبي، ﷺ، قال: «**خالفوا المشركين**»(٣)، «**خالفوا اليهود**»(٤)، «**خالفوا المجوس**»(٥)، فهذه نصوص عامة.

* **أما على وجه التفصيل فسيأتي** ـ إن شاء الله ـ في الموضوع الثامن، نماذج لهذه الأمور، التي بينَّ النبي، ﷺ، فيها أنه سيقع التشبه من بعض

(١) حديث صحيح سبق تخريجه.

(٢) حديث صحيح سبق تخريجه.

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) سيأتي تخريجه.

(٥) سيأتي تخريجه.

المسلمين فيها بالكفار على وجه الإخبار والتحذير .

القاعدة الثالثة : إخباره، ﷺ، بأن **طائفة من أمته ستبقى متمسكة بالحق**، لا يضرّها من خذلها، ولا من عاداها، إلى أن تقوم الساعة .

وهذه القواعد لا يمكن أن **ينفصل بعضها عن بعض، عند النظر في مسائل التشبه**؛ لأنا لو فصلنا هذه النصوص بعضها عن بعض **لتوهم بعض الناس أن المسلمين كلهم سيقعون في التشبه. وهذا لا يمكن أبدًا لأن هذا يناقض حفظ** الدين، والله تعالى تكفل بحفظه، ولأن هذا يناقض إخباره، ﷺ، بأن في أمته طائفة ستبقى على الحق ظاهرة، كما أنا لو أخذنا بهذا الحديث الآخر، وهو «**ستبقى طائفة**»، ولم نأخذ بالحديث الأول، وهو: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»، لتوهم بعض الناس أن هذه الأمة، **معصومة من الوقوع في التشبه بالكافرين.**

والأمر ليس بهذا، ولا بذاك، **إنما ستبقى الأمة الوسط أهل السنة والجماعة،** هم الذين على السنة لا يتشبهون .

والفرق الأخرى التي افترقت عن أهل السنة والجماعة، إنما افتراقها صار بوقوعها في التشبه، فما من طائفة من طوائف الأمة خرجت عن السنة إلا وقعت في شيء من سنن الأمم الهالكة، كما سيأتي نماذج لذلك .

* * * * *

الموضوع الرابع
في الأمور التي ورد النهي عن التشبه بالكفار وغيرهم فيها على وجه العموم

وهي أربعة أنواع:

النوع الأول: أمور العقائد: وهي أخطر أمور التشبه، والتشبه فيها كفر، وشرك، مثل تقديس الصالحين، ومثل صرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله تعالىٰ. ومثل إدعاء النبوَّة أو الأبوة لله لأحد من خلق الله سبحانه، كما قالت النصارىٰ: المسيح ابن الله، وكما قالت اليهود: العزير ابن الله. وكذلك التفرق في الدين[1]، والحكم بغير ما أنزل الله.

وما يتفرع عن ذلك من أمور كفرية، أو شركية، فإن هذا من الأمور العقائدية.

والنوع الثاني: ما يتعلق بالأعياد:

والأعياد وإن كانت تدخل في العبادات غالبًا، وقد تكون من قبيل العادات أحيانًا، إلا أنها خُصَّت في الشرع بنصوص كثيرة، **لأهميتها** خُصَّت بتأكيد النهي عن التشبه بالكفار فيها وخُصَّت أيضًا بقصر المسلمين علىٰ عيدين في السنَة، **فالأعياد** كأعياد **الميلاد**، والأعياد **الوطنية**، **والاحتفالات المنتظمة**، التي تأخذ يومًا في السنة، أو يومًا في الشهر، أو يومًا دوريًا أو

(١) أي الافتراق عن الحق، وعن السنة والجماعة، ولا يدخل في ذلك الاختلاف في الأمور الاجتهادية، فإنه لا يعد افتراقًا في الدين.

أسبوعيا يتكرر، تلتزم به الأمة، **كل ذلك من أمور التشبه الصريحة، التي وردت فيها النصوص.**

النوع الثالث: العبادات، وقد وردت في الشرع عن النبي، ﷺ، على جهة التفصيل نصوص كثيرة، في النهي عن التشبّه بالكافرين في العبادات، وقد نصّت على أمور كثيرة، نُهينا عن التشبه بالكفار فيها، **كتأخير صلاة المغرب، وكترك السُّحور، وتأخير الفطور**، ونحو ذلك مما سيأتي مزيد منه.

النوع الرابع: العادات والأخلاق والسلوك:

كاللباس مثلاً: وهذا يسمي **الهدي الظاهر**. والهدي الظاهر: هو الهيئة، والشكل، كاللباس، وأنماط السلوك، والأخلاق. فقد ورد أيضًا النهي صريحًا عن التشبه في هذه الأمور على جهة الإجمال والتفصيل، كالنهي عن حلق اللحى، وعن اتخاذ آنية الذهب، وعن لبس ما هو من شعار الكفار، وعن التبرج وعن الاختلاط، وعن تشبه الرجال بالنساء، وتشبه النساء بالرجال، ونحو ذلك من العادات.

* * * * *

الموضـوع الخامـس

فـي أحكـام التشـبه

إن أحكام التشبه، على جهة التفصيل، لا يمكن استقراؤها؛ لأن كل حالة من أحوال التشبه لها حكم يعرض على النصوص، وعلى قواعد الشرع من قبل أهل العلم، والفقه في الدين.

ولكن هناك بعض **الأحكام العام**، التي تنتظم جميع أنواع التشبه في الجملة، لا على جهة التفصيل، على النحو التالي:

أولاً: من أنواع التشبه بالكافرين ما هو شرك أو كفر، كالتشبه في العقائد، والتشبه في بعض العبادات، وكالتشبه باليهود والنصارى، والمجوس، في الأمور المخلّة بالتوحيد والعقيدة، كالتعطيل: وهو نفي أسماء الله تعالى، وصفاته، والإلحاد فيها، وكاعتقاد حلول الله تعالى في أحد من خلقه واتحاده بالمخلوقات، وكتقديس الأشخاص من الأنبياء والصالحين، وعبادتهم، ودعائهم من دون الله، وكتحكيم الشرائع والنظم البشرية، كل ذلك إما شرك وإما كفر.

ثانيًا: من التشبه ما هو معصية وفسق، كتقليد الكفار في بعض العادات، كالأكل باليد الشمال، والشرّب بها، والتختم بالذهب، والتحلي به للرجال، وحلق اللحى، وتشبه النساء بالرجال، وتشبه الرجال بالنساء، ونحو ذلك.

ثالثًا: ما هو مكروه: وهو ما تردد الحكم فيه بين الإباحة والتحريم، على

سبيل عدم الوضوح في الحكم، أعني أنه قد تتردد بعض أنماط السلوك والعادات والأشياء الدنيوية، بين الكراهة وبين الإباحة، فهذا دفعًا لوقوع المسلمين بالتشبه، يبقىٰ حكمه مكروهًا.

ويبقى سؤال: هل هناك من أفعال الكفار ما هو مُباح؟

فأقول: إن المُباح هو ما ليس من خصائصهم من أمور الدنيا. أي ليس فيه سِمَةٌ تخصّهم، وتميّزهم عن المسلمين الصالحين، وما لا يجرّ إلىٰ مفسدة كبرىٰ علىٰ المسلمين، أو إلىٰ منفعة للكفار تؤدي إلىٰ الصَّغار للمسلمين، ونحو ذلك.

ومن المباح: الإنتاج المادي البحت، الذي لا يلحق المسلمين في تقليدهم فيه ضرر. وكذلك العلوم الدنيوية البحتة: التي لا تمسّ العقيدة والأخلاق، فهذا يدخل في باب المباح.

* **وأحيانًا** يجب علىٰ المسلمين أن يستفيدوا مما عند الكفار من علوم الدنيا البحتة. والمقصود بالبحتة ما لا يوجد لهم فيه توجيه، أو أثر يصادم النصوص، أو القواعد الشرعية، أو يوقع المسلمين في الذّلة والصغار. ما عدا ذلك فإنه يدخل في باب المباحات[١].

---

(١) من الواجب علىٰ المسلمين السعي إلىٰ الاستغناء عن الكفار قدر الإمكان، لكن ذلك يجب ألا يطغىٰ علىٰ الواجبات الأساسية علىٰ المسلمين، كالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة، وإقامة الدين، وليس علىٰ المسلم غضاضة أن يستفيد من الأمور الدنيوية كالصناعات من أي أمة وأي بلد في حدود الضوابط الشرعية، كما كان الرسول، ﷺ، وأصحابه وسلف الأمة يفعلون، فكانوا لا يمانعون من الإفادة من صناعات وحرف وإمكانات الكفار المادية ما دامت لا تؤدي إلىٰ فرض الصَّغار، والذلّة علىٰ المسلمين. وأرىٰ أنه من المبالغة القول بأن أهم واجبات المسلمين اليوم السعي للتقدم المادي بإطلاق، لكن ذلك مشروط بإقامتهم للدين، ومستلزماته الشرعية أولاً، ثم ليسعوا بعد ذلك إلىٰ التفوق المادي، بل الأمر المنطقي أن إقامة الدين تؤدي بالضرورة إلىٰ التفوق الدنيوي. والله أعلم.

إذن أمور العقائد والعبادات، والأعياد، التحريم فيها قطعي! **أي تحريم التشبه بالكفار فيها قطعي!** وما كان دون ذلك فهو إما من قبيل العادات، فإن كان من خصائصهم فهو حرام! وإن لم يكن من خصائصهم، فالحكم فيه يتردد بين **التحريم والكراهة والإباحة. وما كان من قبيل العلوم والأمور الدنيوية البحتة**، كالصناعات عمومًا وصناعة الأسلحة وغيرها، فهذا الأمر مباح إذا قيد بالقيود السابقة.

* * * * *

الموضوع السادس

في أصناف الذين نهينا عن التشبه بهم

باستقراء نصوص الشرع، نستطيع أن نتعرف علىٰ أكثر هذه الأصناف، لا علىٰ سبيل الحصر، ولكن علىٰ سبيل التقريب.

الصنف الأول: عموم الكفار: فقد ورد النهي عن التشبه بالكفار عمومًا، دون تخصيص. وعلىٰ هذا يدخل في ذلك المشركون، واليهود، والنصارىٰ، والمجوس، والصابئة، والملاحدة وغيرهم. فقد نُهينا عن كل ما هو من خصائص الكفار، في العبادات، والعادات، واللباس، مثل قول النبي، ﷺ، لعبد الله بن عمر حينما رأىٰ عليه ثوبين معصفرين قال: «**إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها**». وهذا فيه دليل علىٰ أن اللباس إذا كان من خصائص الكفار فلا يجوز للمسلم لبسه[١].

الصنف الثاني: المشركون.

فقد ورد النهي عن عباداتهم، وأعيادهم، وأفعالهم، مثل المكاء والتصدية، وهو الصفير والتصفيق، ومثل الاستشفاع والتوسل بالمخلوقات عند الله سبحانه وتعالىٰ في الدنيا، ومثل النذر والذبح عند القبور، ونحو

(١) من اللباس الذي أرىٰ أنه من خصائص الكفار اليوم وشعارهم: البنطلون، فلا يجوز لبسه في بلاد المسلمين، وإن كثر بين المتفرنجين منهم ـ وهم الأكثر في بعض بلاد المسلمين ـ فالعبرة بأهل الاستقامة والصلاح والفقه في الدين، وليس من سماتهم لبسه، كما أن البنطلون السائد لا تتوفر فيه الحشمة لأنه يُجسم العورة. ومن السمات ما يخصّ طوائف من الكفار كقبعة اليهود والصليب للنصارىٰ وغيرها.

ذلك، ومما ورد النهي فيه عن أفعال المشركين: الإفاضة من عرفات قبل الغروب.

وكان السلف رحمهم الله يكرهون كل ما هو من خصائص المشركين. وكل ما هو من أعمالهم، كما قال عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ وغيره: **«من بنى ببلاد المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة»**[١]. وقد كره ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وضع الشرفات على المساجد، ونهى عن ذلك في أكثر من مناسبة؛ لأنه يرى أنها تشبه أنصاب المشركين[٢].

الصنف الثالث: أهل الكتاب:

والمقصود بهم اليهود والنصارى، فقد نهينا عن كل ما هو من خصائص اليهود والنصارى، أو أحدهم، في عقائدهم، وفي عباداتهم، وفي عاداتهم، وفي لباسهم، وفي أعيادهم، مثل البناء على القبور، واتخاذها مساجد، ورفع الصور، والافتتان بالنساء، وترك أكلة السحور، وعدم صبغ الشيب، ورفع الصليب، والاحتفال بأعيادهم، أو مشاركتهم فيها، ونحو ذلك.

الصنف الرابع: المجوس:

ومن خصائص المجوس: الصلاة إلى النار وعبادتها، وتقديس الملوك والعظماء، وحلق القفا أي مؤخرة شعر الرأس، دون المقدمة، وحلق اللحى، وتطويل الشوارب، والزمزمة وهي الصفير، واتخاذ آنية الذهب والفضة..

---

(١) سنن البيهقي ٩/ ٢٣٤.

(٢) انظر المصنف لابن أبي شيبة ١/ ٣٠٩، واقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية ١/ ٣٤٤ المحقّق.

الصنف الخامس: الفرس، والروم:

وهذا طبعًا يشمل أهل الكتاب، والمجوس وغيرهم، الفرس، والروم. فقد نهينا أيضًا عما هو من خصائصهم من عبادات وعادات، وطقوس، مثل تعظيم وتقديس الكبراء والسادة، وطاعة الأحبار والرهبان، مع تشريع ما لم يشرعه الله، والتنطع والتشدّد في الدين.

الصنف السادس: الأعاجم غير المسلمين:

وذلك مبني على قول النبي، ﷺ، **حينما نهى أن يجعل الرجل في أسفل ثيابه حريرًا**، قال: **«مثل الأعاجم» أو يجعل على منكبيه حريرًا قال: «مثل الأعاجم»**[١]. ونهى النبي، ﷺ، أيضًا أن يقوم الناس للرجل تعظيمًا له، بل إنه نهى أن يقوم المأموم والإمام قاعد لعلة، خشية من أن يفهم أن ذلك على سبيل التعظيم، وكما عُلل بالحديث بأنه يشبه فعل الأعاجم، فكانوا يقومون عند ساداتهم، وكبرائهم، وهذا منهي عنه، وهو تشبه بالكافرين الأعاجم[٢].

وثبت عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه نهى عن زي العجم، وزي المشركين، أشد النهي، وقد أشار إلى مثل كثير من السلف.

---

(١) جاء ذلك في حديث أخرجه أبو داود (٤٠٤٩)، والنسائي ٨/ ١٤٣، وأحمد ٤/ ١٣٤. وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ١/ ٣٠٤.

(٢) انظر: صحيح مسلم، الحديث (٤١٣)، وسنن أبي داود، الحديث، (٦٠٢) (٦٠٦) (٥٢٣٠) وابن ماجة (١٢٤٠) ومسند أحمد ٥/ ٢٥٣، ٢٥٦.

الصنف السابع: الجاهلية وأهلها:

فقد جاء النهي عن كل ما هو من أعمال الجاهلية ومن أخلاقها، وعباداتها، وعاداتها، وشعاراتها، مثل السفور؛ وتبرج النساء؛ وبروز المُحرِم للشمس بغير ظل؛ أو حتىٰ لا يستظل. كما يفعل الرافضة اليوم، فإن هذا من أعمال الجاهلية، ومن أعمال المشركين، وكذلك التعرِّي، أي إظهار العورة، أو شيء منها، والعصبية القومية، والفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والنياحة والاستسقاء بالنجوم، فقد ألغىٰ النبي ﷺ حينما جاء الإسلام كل أحوال الجاهلية، وأعرافها، وعاداتها، وتقاليدها، وتشريعاتها، وأسواقها، ومن ذلك: التبرج والاختلاط والرِّبا.

الصنف الثامن: الشيطان:

ممن نهينا عن التشبه بهم: الشيطان، فقد ذكر النبي ﷺ بعض أفعال الشيطان، ونهىٰ عنها كالأكل والشرب باليد اليسرىٰ، وقد روىٰ مسلم وغيره، أن النبي ﷺ قال: «**لا يأكلن أحدكم بشماله ولا يشرب بها، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها**»[1]. وهذه الخصلة مع الأسف وقع فيها كثير من المسلمين تساهلاً أو استكباراً عن الحق، وتشبهاً بأولياء الشيطان من الكافرين والفُساق.

الصنف التاسع: الأعراب الذين لم يكمل دينهم:

وهم الأعراب الجهلة، فإن الأعراب كثيراً ما يشرعون عادات وتقاليد ليست من الإسلام في شيء؛ وبعضها موروث من الجاهلية، والأعراب

---

(١) صحيح مسلم (٢٠١٩).

الجُفاة في عاداتهم، وتقاليدهم، وأعرافهم، واصطلاحاتهم، ما يُخالف الشرع. من ذلك مثلاً: العصبية الجاهلية، والفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، وتسمية المغرب العشاء، وتسمية العشاء العتمة، والحلف بالطلاق، وتعليق الطلاق بالأعمال، والحجر على ابنة العم، فلا تتزوج إلا من ابن عمها، ونحو ذلك من العوائد الجاهلية.

* * * * *

الموضـوع السـابـع

في أسباب وقوع المسلمين في تقليد الكفار وفي التشبه بهم خلاف أمر النبي صلى الله عليه وسلم ووقوعًا فيما نهى عنه

فأولاً: يحسن أن نعرف أن هذا الأمر حدث، كما أخبر به النبي ﷺ، وما لم يحدث فهو أمر لابد واقع.

ثانيًا: ينبغي أن نفهم بناءً على القواعد السابقة، أن الذين وقعوا في التشبه بالكافرين ليسوا أهل الحق، ولا أهل السنة والجماعة، إنما الذين وقعوا هم أهل الأهواء، والافتراق، وما من فرقة افترقت عن أهل السنة والجماعة، إلا وفيها شبه بالكفار يقلّ أو يكثر.

من أهم أسباب الوقوع في التشبه بالكافرين:

السبب الأول: مكايد الكفار للإسلام والمسلمين:

وهذا حاصل من أول ظهور الإسلام حتى اليوم، فالكفار بمختلف ملَلهم، وعقائدهم، وأديانهم، وأهوائهم، كادُوا ولا يزالون يكيدون للإسلام، فكان من مكائدهم: إيقاع المسلمين في كثير مما كانوا عليه من أمور العقائد، والعادات، والأعياد، والسلوك. ولذلك نجد أن أغلب أسباب الافتراق في الأمة، هي مكائد الكافرين، وما من فرقة افترقت عن الأمة إلا ونجد أن من أسباب افتراقها وجود طوائف من الكفار، إما أن يكونوا أسهموا في بثها وترويجها بين أهل الأهواء والبسطاء من المسلمين، أو كانوا رؤوسًا فيها أو من أتباعها، فمكائد الكفار أصحاب الديانات والملل، هي من أصل

أسباب وقوع المسلمين في التشبه، والله سبحانه وتعالىٰ، أخبرنا بذلك في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [سورة البقرة الآية: ١٢٠]. وفي مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة آل عمران الآية: ١١٨]. ومثل قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة البقرة الآية: ١٠٥]. ومثل قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٩]. وقال: ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٠].

إذن فالكفّار لا شكّ أنهم حرصوا ـ ولا يزالون من أحرص الناس ـ علىٰ صرف المسلمين عن دينهم، وهم يبذلون جهوداً الآن أكثر من أي وقت مضىٰ، وكل مسلم متأمل لواقع المسلمين الآن في العالم كله، يدرك تكالُب الكفار علىٰ الأمة المسلمة اليوم، لمحاولة فرض أحوال وأمور الكافرين من عقائد، ومن عادات، ومن أنظمة، ومن سياسات، وأخلاق، وغيرها. فإن الكفار وأعوانهم قد تألبوا علىٰ الأمة، بإيقاعها في التشبه بهم، أكثر من أي وقت مضىٰ.

السبب الثاني: جهل بعض المسلمين وعدم تفقههم بالدين:

جهلهم بأحكام الدين، وبمنهج السلف الصالح، وهذا أمر بيِّن واضح.

والسبب الثالث: ضعف المسلمين ماديًا ومعنويًا وعسكريًا:

مما أدىٰ إلىٰ شعورهم بالضعف، والانهزامية، وإلىٰ غلبة الكفار عليهم، في كثير من شئون الحياة.

والسبب الرابع: كيد المنافقين:

فهم يعيشون بين ظهراني المسلمين، وهم الأداة الفعّالة، والقوية في خدمة الكفار، قديمًا وحديثًا. فالمنافقون الذين بين المسلمين، لهم أثر كبير في جرّ المسلمين إلىٰ التشبه، والمقصود بالمنافقين، فئات كثيرة:

منهم: أولئك الذين ادّعوا الإسلام من الأمم الكافرة، ودخلوا فيه ظاهرًا، للكيد له.

ومنهم: من هو مسلم في الأصل، لكنه ارتد وانحرف.

ومنهم: من يميل إلىٰ الفسق والفجور، وإن كان يدعي الإسلام، فكثير من الذين يجرُّون المسلمين الآن إلىٰ التشبه بالكافرين، هم من الذين في قلوبهم مرض، والذين يُحبّون أن تشيع الأهواء، والفواحش في المسلمين، من العلمانيين، وغيرهم.

وعلىٰ أي حال فإن أسباب وقوع المسلمين في التشبه بالكافرين كثيرة.

* * * * *

الموضـوع الثامن
نماذج مما ورد النهي فيه عن التشبه بالكافرين عن النبي صلى الله عليه وسلم

أولاً: أول الأمور التي ورد النهي عنها صراحة في الشرع عن التشبه بالكافرين فيها: الافتراق في الدين.

وهكذا كثير في الكتاب والسنة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٥]. ومنه إخبار النبي ﷺ بافتراق هذه الأمة: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة»**. فهذا الافتراق جاء الإخبار به على سبيل النهي والتحذير.

ثانيًا: رفع القبور والبناء عليها، واتخاذها مساجد، واتخاذ التماثيل، ورفع الصور.

وهذه الأمور وردت في نصوص كثيرة، أجملها فيما يلي:

* روى مسلم وغيره عن علي - رضي الله عنه - قال: **«أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدع قبرًا مشرفًا إلا سويته، ولا تمثالاً إلا طمسته»**[1].

* وروى ابن أبي عاصم بسند صحيح، عن معاوية - رضي الله عنه - قال: **«إن تسوية القبور من السنن، وقد رفعت اليهود والنصارى فلا تشبهوا**

---

(١) صحيح مسلم الحديث (٩٦٩).

بهم»[١]. يعني في رفع البناء على القبور وهذه البلوى أي رفع البناء على القبور، أو رفع القبور بذاتها، من أعظم البلاوي التي أصيب بها المسلمون في كثير من أقطارهم اليوم، وذلك مصداقًا لحديث النبي ﷺ **«لتركبن سنن من كان قبلكم»**[٢]. . ومن ذلك: اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ومعنى اتخاذ قبورهم مساجد، أي: البناء عليها، بناء مساجد، والصلاة في هذه المساجد.

ومن ذلك البناء على قبور الصالحين، أو دفن الصالحين في المساجد، ولو بعد بنائها، كل ذلك يشمله النهي. ومن ذلك أيضًا: ارتياد المقابر من أجل الدعاء عندها، أو دعاء أهلها من دون الله، أو التقرب إليها بسائر القربات، وكل ذلك إنما هو من فعل اليهود والنصارى، وقد حذر منه النبي ﷺ أشدّ التحذير.

* ما رواه مسلم أن الرسول ﷺ قبل أن يموت بخمس - أي بخمس ليال - قال عليه الصلاة والسلام: **«إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليلاً فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت مُتّخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك!!»**[٣].

* وجاء في الصحيحين، أن النبي ﷺ قال: **«قاتل الله اليهود، اتخذو قبور أنبيائهم مساجد»**[٤]. وفي لفظ مسلم: **«لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور**

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٤٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صحيح مسلم الحديث (٥٣٢).

(٤) صحيح البخاري فتح الباري الحديث (٤٣٧).

أنبيائهم مساجد»[١].

* وفي الصحيحين عن عائشة، وابن عباس قالا: **«لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أي مرض موته ـ طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه. وقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذّر ما صنعوا»**[٢]. وقال ﷺ في قصة أم سلمة، وأم حبيبة، وما رأته من كنيسة في الحبشة من حسنها والتصاوير التي فيها، فقال النبي ﷺ لهما: **«أولئك قوم إذا مات العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل»**[٣].

وهذه الأمور من أعظم مما ابتلى به المسلمون اليوم.

ثالثًا: من أعظم صور التشبه وأخطرها على المسلمين الافتتان بالنساء، فإن هذا من خصال الكفار.

والمقصود بالافتتان بالنساء: إخراجهن عن سمتهن وسترهن وحشمتهن حتى يفتتن بهن الرجال.

وخُصَّت النساء بتلك الأمور:

١ ـ لأن النساء يرغبن بهارج الدنيا.

٢ ـ لأنهن ينزعن إلى التقليد والمحاكاة، والمبالغة في ذلك.

٣ ـ لأن المرأة جُبلت على إغراء الرجل، والتزين له، وكذلك الرجل جُبل على الميل إلى المرأة إذا أسفرت، ولم تنزع إلى الحشمة وإلى الستر.

---

(١) صحيح مسلم، الحديث (٥٣٠).

(٢) صحيح البخاري، فتح الباري، الحديث، (٤٣٥، ٤٣٦). ومسلم الحديث، (٥٣١).

(٣) البخاري، فتح الباري، حديث، (٤٢٦). ومسلم الحديث (٥٢٨).

وكثير من مشابهة أهل الكتاب والكفار في عاداتهم، وأخلاقهم، وأعيادهم، كثير من ذلك إنما تدعون إليه النساء أولاً ثم الصبيان والسفهاء.

وهذه الخصلة خصلة الافتتان بالنساء وقع فيها كثير من المسلمين في هذا العصر - مع الأسف - والنبي ﷺ حذَّر من ذلك فقال: **«فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»**(١). فإذا أعطيت المرأة شيئًا من القوامة، وإذا لان الرجال مع النساء، فيما هو من حدود الله تعالىٰ(٢)، وإذا تخلّوْا عن مبدأ الحشمة والستر، فإن هذا هو الطريق والسبيل إلىٰ الفتنة، وفي الغالب أن الأمة المسلمة إذا وقعت في هذه الخصلة، فإنها تخسر دينها، ودنياها، وتسلط عليها الفتن.

رابعًا: من الأمور التي نهىٰ النبي ﷺ عنها لأنها تشبه بالكفار: ترك الشيب بلا صبغ، تشبهًا باليهود والنصارىٰ.

فقد جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ: **«إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم»**(٣). مع اجتناب السواد، كما هو معلوم من نصوص أخرىٰ.

خامسًا: ورد النهي عن حلق اللحىٰ، وقصّ الشوارب؛ لأن فعل ذلك يُعدّ تشبّهًا بالمشركين، والمجوس، واليهود، والنصارىٰ، فقد صحّ عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، الأمر بإعفاء اللِّحَىٰ، وإحفاء الشوارب؛ وعلل ذلك النبي ﷺ بأنه مخالفة للمشركين والمجوس، فقال - عليه الصلاة والسلام -،

---

(١) صحيح مسلم، الحديث (٢٧٤٢).

(٢) إكرام المرأة أمر مطلوب شرعًا، وليس من إكرامها طاعتها في معصية الله، ولا تخلي الرجل عن قوامته لها، كما أمر الله تعالىٰ.

(٣) البخاري، فتح الباري، الحديث، (٣٤٦٢). ومسلم الحديث، (٢١٠٣).

«خالفوا المشركين، أحفوا الشوارب وأوفوا اللحى»(١)، وفي رواية: **«جزوا الشوارب»**، وكما ورد عن مسلم أيضًا: **«جزوا الشوارب وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس»**(٢).

سادسًا: ورد النهي عن التشبه بالكافرين، وهنا خصّ اليهود؛ لأنهم لا يصلون بالنعال، ولا الخفاف. فقد ورد النهي عن ترك الصلاة في النعال، على وجه الاستدامة، أو التعبد مخالفة لليهود، ما لم يترتب على ذلك أذىً، كما رواه أبو داود والحاكم، وصححه، وتابعه الذهبي، قال النبي ﷺ: **«خالفوا اليهود، فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا في خفافهم»**(٣).

وهذه المخالفة يقع فيها كثير من الجهلة، وأصحاب البدع، الذين يستنكرون فعل هذه السنة.

والصلاة في النعال عند أهل العلم، مشروطة بعدم وجود الأذى، فإذا كان المسجد مثلاً مفروشًا، والأرض التي يطأوها خارج المسجد غير نظيفة، كما هو في المدن، فإنه لا يُشرع الصلاة في النعال على الفرش، وإنما النبي ﷺ كان يُصلّي على التراب، وأرض المسجد آنذاك ليس فيها فرش، ولذلك ينبغي للمسلم أن يحرص على السنة، إذا خرج خارج المساجد المفروشة، بأن يحاول أن يصلي في نعاله أحيانًا امتثالاً لأمر النبي ﷺ لا على سبيل الدوام، لأن ذلك لم يؤثر عن السلف.

سابعًا: التفريق في الحدود، وفي الجزاءات والتعزيرات، والأنظمة، بين

---

(١) البخاري، فتح الباري، الحديث، (٥٨٩٣). ومسلم، (٢٥٩).

(٢) مسلم، الحديث (٢٦٠).

(٣) أبو داود، الحديث، (٦٥٢). والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي ١/ ٢٦٠.

الشريف والضعيف، كما يفعل اليهود، وقد جاء في الصحيحين في قصة شفاعة أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ بالمخزومية التي سرقت. فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: **«يا أسامة، أتشفع في حدّ من حدود الله؟! إنما هلك بنو إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»**(١).

ثامنًا: ورد النهي عن التشبه بالكفار في السَّدل في الصلاة(٢)، وأن يغطي الرجل فاهه، وهو ما يسمي بالتلثم؛ لأن ذلك من فعل اليهود.

فقد أخرج أبو داود والترمذي، وأحمد والحاكم، وقال: على شرط الصحيحين، أن رسول الله ﷺ: **«نهى عن السدل في الصلاة وأن يغطي الرجل فاه»**(٣). وقد علل ذلك بعض الصحابة، أنه من فعل اليهود.

تاسعًا: من التشبه بالكافرين وأهل الجاهلية التبرج والسفور، وخروج المرأة لغير حاجة. قال الله تعالى: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ**﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٣]. وقال ابن عباس: **«لا تبد العورة ولا تستن بسنة المشركين»**(٤).

عاشرًا: الاختصار في الصلاة: والمقصود بالاختصار في الصلاة وضع اليد على الخاصرة، فإنه من السنة في الصلاة أن يضع الرجل ـ أو يضع المصلي ـ يديه على صدره اليمنى على اليسرى، فالاختصار في الصلاة منهي عنه، لأنه من فعل اليهود، كما ثبت عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنه

(١) البخاري، فتح الباري، الحديث، (٣٤٧٥)، ومسلم، الحديث، (١٦٨٨).
(٢) السدل في الصلاة: سدل الثوب وهو أن يطرحه على أحد كتفيه، ولا يعطفه على الآخر.
(٣) أبو داود، الحديث، (٦٤٣). والترمذي، الحديث، (٣٧٨). وأحمد والحاكم.
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٤٠).

كرهت الاختصار في الصلاة، وقالت: «**لا تشبهوا باليهود**» وقالت: «**إن اليهود تفعله**»[١].

الحادي عشر: الأعياد والاحتفالات والمهرجانات:

إذ لم ترد في الشرع، ومعروف أنه لم يشرع إلا عيد الأضحىٰ وعيد الفطر! فإن كثرة الأعياد من دين أهل الكتاب، والكفار، والمشركين، والمجوس، والجاهلية. وقد نهىٰ النبي ﷺ أن يُعيِّد المسلمون بأكثر من عيدين. فقد قال تعالىٰ، في صفة عباد الرحمن: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾ [**سورة الفرقان، الآية**: ٧٢]. قال كثير من مفسري السلف: المقصود بالزور: أعياد المشركين والكفار، والأعياد من الشرائع والعبادات، وهي توقيفية[٢].

إنها عبادة لا يجوز الزيادة فيها، ولا النقص عما شرعه النبي، ﷺ، فلو حلا لأحد من الناس مثلاً أن يضع للأمة عيداً ثالثاً، مهما كانت مناسبته، فإن هذا من التشريع بغير ما شرعه الله، وكذلك لو حلا لأحد من الناس أن يلغي عيداً، من الأعياد التي شرعها الله، فإن ذلك تشريع أيضًا، ولا يجوز، بل إنه كفر، لذلك منع الرسول، ﷺ، أهل المدينة من إحياء بعض أعيادهم، وأيامهم القديمة.

فقد أخرج أبو داود، وأحمد والنسائي، بإسناد صحيح علىٰ شرط مسلم، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال:

(١) صحيح البخاري، فتح الباري، الحديث، (٣٤٥٨). ومصنف عبدالرزاق، الحديث، (٣٣٣٨). واقتضاء الصراط المستقيم، (١/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) راجع تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٨، ٣٢٩.

«ما هذان اليومان؟ قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أبدلكم بهما خيرا يوم الأضحى ويوم الفطر»[1]. وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: «اجتنبوا أعداء الله في أعيادهم»[2].

فالعيد مهما كان مبرره من شرع الله، لا يجوز الزيادة فيه ولا النقص.

ويدخل في الأعياد - كما هو معروف عند أهل العلم - كل مناسبة تأخذ اهتمامًا من المسلمين في زمن دوري، كأن يكون كل شهر أو كل سنة أو كل سنتين، أو كل خمس أو كل عشر، سواء كانت يومًا أو أسبوعًا أو غير ذلك. وكل مناسبة تلتزم بها الأمة في زمن معين، وعلى هيئة معينة فإنها تكون عيدًا، ولو لم تكن من الأعياد المعهودة.

ويدخل ذلك من باب أولى ما يسمى بالأعياد الوطنية، أو أعياد العروش، أو أعياد المناسبات، أو أعياد الانتصارات، أو أعياد الفصول، أو غيرها من الأعياد.

ومن ذلك ما يسمى بالأسابيع إذا اتخذت شكلاً تلتزم به الأمة، كأسبوع المساجد، وأسبوع الربيع، فما لم يتغير هذا الأسبوع من وقت إلى وقت، فإنه يدخل في باب التعييد، وهذا من بذور الابتداع، حتى لو فطن الناس في وقت تشريع هذا الأمر إلى الضوابط الشرعية، وتجنبوا المحاذير، فإنه ستأتي أجيال لا تفطن، وترث هذه الأمور على أنها من اللوازم على الأمة، وكل ما لزم مما لا يلزم شرعًا، فإنه يكون تشريعًا؛ نعم كل ما ألزم الناس به أنفسهم مما لا يلزم شرعًا، فإنه يكون تشريعًا، سواء سُمي عيدًا أو سُمي

---

(١) أبو داود، الحديث، (١١٣٤). وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٣٢.

(٢) البيهقي (السنن الكبرى) ٩/ ٢٣٤. وانظر: كنز العمال، الحديث (١٧٣٢).

يومًا، أو سمىٰ أسبوعًا، أو شهرًا، أو مناسبة، أو احتفالاً، أو مهرجانًا، أو غير ذلك.

كل هذه الأمور لا شكّ عند المحققين من أهل العلم، أنها من المحذور، وهذا من التعيد الممنوع!!

الثاني عشر: ترك أكلة السحور: كما يفعل اليهود وأهل الكتاب؛ لأنّهم لا يتسحرون، فقد روىٰ مسلم، عن النبي ﷺ قال: «**فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور**»[1]. ومع الأسف نرىٰ الكثير من المسلمين في هذا الوقت يقع في هذا المحذور، خاصة الذين يسهرون إلىٰ قرب وقت السحور، ثم ينامون؛ وقد أكلوا نصف الليل أو قبل ذلك، أو لم يأكلوا، فهؤلاء لا شك أنهم يتركون أكلة السحور عمدًا، وهذا لا يجوز! بل هو من سنن الكافرين، سنة اليهود.

ولو لم يكن فيه من الإثم إلا مخالفة نهي النبي ﷺ عن ذلك لكفىٰ ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [سورة **النور، الآية**: ٦٣].

الثالث عشر: تأخير الفطور: فإن تعجيل الفطور للصائم من السنن، وهو مخالفة لليهود والنصارىٰ، وقد أخرج أبو داود، والحاكم، وصححه، أن النبي ﷺ قال: «**لا يزال الدين ظاهرًا ما عجّل الناس الفطر؛ لأن اليهود والنصارى يؤخرونه**»[2]. وهذه الخصلة وقع فيها بعض الناس، وهي كثيرة في الرافضة

---

(١) مسلم، الحديث (١٠٩٦).

(٢) أبو داود، الحديث (٢٣٥٣) وابن ماجة، الحديث (١٦٩٨) والحاكم ١/ ٤٣١، وصححه علىٰ شرط مسلم.

الشيعة، فإن الشيعة يؤخرون صلاة المغرب، ويؤخرون الفطور إلىٰ أن تشتبك النجوم!!

وكذلك يقع فيه بعض الناس من باب الحيطة، والتنطع في الدين، فإن هؤلاء أحيانًا لا يثقون بالمؤذنين، بل ولا يثقون برؤيتهم لغروب الشمس، فيتأخرون عن وقت الإفطار زعمًا منهم أن هذا من باب الاحتياط. وهذا وسواس، وعبث من الشيطان؛ لأنه وقوع في المحذور، فتأخير السحور وتعجيل الفطور هو السنة.

وقد ثبت في السنة أن اليهود يؤخرون المغرب حتىٰ تشتبك النجوم، أي تبدو متشابكة، وتظهر للعيان، وقد أخرج أبو داود والحاكم، وصححه، وكذلك ابن ماجة وأحمد في المسند أن النبي ﷺ قال: «**لا تزال أمتي على الفطرة ما لم يؤخروا المغرب إلى اشتباك النجوم**»(١). وقد فُسِّر ذلك في أحاديث أُخر، أنه مضاهاة لليهودية، ومضاهاة للنصرانية(٢).

الرابع عشر: اعتزال الحائض من النساء، في المؤاكلة، والمؤانسة، والجلوس في البيت، فإنه من خصال اليهود، ذلك أنهم إذا حاضت المرأة يفاصلونها، ويعتزلونها عند المؤاكلة، وعن المجالسة في البيت.

وقد نهىٰ عنه النبي ﷺ وقال: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»(٣)، حينما سأله بعض المسلمين الذين يرون أفعال اليهود في المدينة.

---

(١) أبو داود، الحديث، (٤١٨) وابن ماجة، الحديث (٦٨٩). وأحمد ٣/ ٤٤٩، والحاكم، وصححه علىٰ شرط مسلم ١/ ١٩٠، ١٩١.

(٢) عزاه ابن تيمية في الاقتضاء ١/ ١٨٤ إلىٰ سعيد بن منصور، ونحوه عند أحمد في المسند ٤/ ٣٤٩. وابن أبي حاتم في المراسيل (١٢١).

(٣) مسلم، الحديث (٣٠٢).

الخامس عشر: النهي عن الصلاة، وقت طلوع الشمس، وغروبها: لأنها تطلع بين قرني شيطان، ولأنها يسجد لها الكافر وقت الطلوع، ووقت الغروب. وقد أخبر النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم عن عمرو بن عبسة في حديثه الطويل. ومنه قال: «**صل صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع، فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار**»[1]. وقال مثل ذلك في غروبها أيضًا.

السادس عشر: النهي عن القيام للشخص وهو قاعد تعظيمًا له، خاصة إذا كان الشخص له مقام، أو قدر، وإذا كان من المعظمين، فقد ورد النهي عن ذلك في نصوص كثيرة.

من ذلك ما ورد من النهي عن صلاة المأمومين قيامًا والإمام قاعدًا، إذا طرأ للإمام طارئ، فلم يستطع القيام، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه ينبغي للمأموم أن يقعد مثله، خوفًا من تقليد الأعاجم الذين يقومون لعظمائهم. فقد قال ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود وابن ماجة: «**إذا صلى الإمام جالسًا فصلُّوا جلوسًا، وإذا صلى الإمام قائمًا فصلوا قِيامًا، ولا تفعلوا كما يفعل أهل فارس بعظمائها**»[2]!! وفي رواية «**ولا تعظموني كما تُعظِّم الأعاجم بعضها بعضًا**»[3]. وأخرج مسلم: «**إن كدتم آنفًا تفعلوا فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود**»[4]، وذلك حينما قام الصحابة، وكان النبي ﷺ يُصلّي قاعدًا موعوكًا.

---

(١) مسلم، الحديث، (٨٣٢).

(٢) أبو داود، الحديث، (٦٠٢). وابن ماجة، الحديث (١٢٤٠).

(٣) انظر: أبو داود، الحديث (٥٢٣٠).

(٤) مسلم، الحديث (٤١٣).

السابع عشر: ندب الميت بالنياحة، وإقامة المآتم الصاخبة ونحوها، كما تفعل الجاهلية! فقد قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**ليس منّا من ضرب الخدود، وشقّ الجُيوبَ ودعا بدعوى الجاهلية**». وهذه الخصلة أيضًا وقع فيها كثير من المسلمين اليوم.

الثامن العشر: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم. وهذه من أفعال الجاهلية، التي نهىٰ عنها النبي ﷺ حيث قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»(١).

التاسع عشر: العصبية إلى قوم، أو إلىٰ مذهب، أو إلىٰ بلد، أو نحو ذلك، فأي عصبية أو انتماء لغير الإسلام علىٰ وجه الافتخار والتعصب، إنما هو من أفعال الجاهلية. فقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل لعصبية، وليس منا من مات على عصبية**». أخرجه أبو داود، ومسلم في معناه(٢).

* وهذ العصبية التي نهىٰ النبي ﷺ عنها من أعظم الأمور التي وقع فيها المسلمون، قديمًا وحديثًا، ومن العصبية التي وقعت بين المسلمين الآن، وافتتنوا بها وفرقتهم: القوميات، والوطنيات الضيقة، التي جعلت المسلمين شعوبًا، وفرقتهم أُممًا، ولعل أحداث هذه الأيام تبين لنا مدىٰ تأثير القوميات، في إثارة العصبيات الجاهلية علىٰ المسلمين، ومناصرة الظالم انتصارًا للقومية(٣). وقد حذّر النبي ﷺ من ذلك، فقال: «**من نصر قومه على**

---

(١) صحيح مسلم، الحديث (٩٣٥).

(٢) هذا لفظ أبي داود، الحديث، (٥١٢١). ولمسلم بمعناه، الحديث (١٨٤٨).

(٣) أقصد بذلك اجتياح العراق للكويت تحت شعارات جاهلية، وما نتج عنه من تأييد عصابات الأحزاب القومية وأهل الأهواء لهذا الظلم والتعدي بعصبية جاهلية.

غير الحقّ فهو كالبعير الذي ردّي فهو ينزع بذنبه»[١].

العشرون: إفراد اليوم العاشر من المحرم، وهو يوم عاشوراء بالصوم، لأن اليهود تفعل ذلك. وقد روى الإمام أحمد في المسند أن النبي ﷺ قال: **«صُوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود، صوموا قبله يومًا أو بعده يومًا»**[٢].

الحادي والعشرون: وصل الشَّعر من قبل النساء، والمقصود بوصل الشعر: وضع شعر غير ما خلقه الله للمرأة، كما تفعل اليهود، ومثله في نظري ما يسمى بالباروكة، لأنه من باب وصل الشعر، إذا غيرت به المرأة شعرها الطبيعي، أما إذا لم يكن لها شعر أصلاً فقد أجازه بعض أهل العلم، لقصد التزين للزوج، فقد أخرج البخاري ومسلم، من حديث معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال في القصة من الشعرة التي يوصل بها: **«إنما هلك بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم»**[٣]، وقال معاوية: **«ما كنت أرى أن أحدًا يفعله إلا اليهود»**[٤].

الثاني والعشرون: قسوة القلوب، وعدم الخشوع لآيات الله، ولذكره، وهذا من خصال اليهود التي نهى الله عنها في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [سورة الحديد، الآية: ١٦]. والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى.

الثالث والعشرون: الرهبانية والتشدّد في الدين: فإن هذا من أعظم خصال

---

(١) أبو داود بسند صحيح، الحديث، (٥١١٨).

(٢) مسند أحمد ١/ ٢٤١. وانظر: صحيح مسلم، الحديث (١١٣٣).

(٣) صحيح مسلم، الحديث (٢٧٤٢).

(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٥٣).

النصارىٰ، وهو المبالغة في الدين بما لم يشرعه الله، سواء في العبادة، أو في العقائد، أو في الأحكام، كالانقطاع للعبادة، وترك السعي للرزق، وترك الجهاد، وترك الضرب في الأرض، وكتحريم المباحات أو تركها تدينًا[1]، أو كالتنطع في الدين بما يخرج عن منهج الاعتدال، الذي هو دين الإسلام، والرهبانية ـ كما تعلمون ـ من فعل النصارىٰ ـ وقد نهىٰ الله عن ذلك ـ ونهىٰ عنه ﷺ بقوله: **«لا تشددوا على أنفسكم فيشدِّد الله عليكم، فإن قومًا شدَّدُوا على أنفسهم فشدَّدَ الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»**[2].

* * * * *

(١) أرىٰ من صور الرهبانية: الإصرار علىٰ ترك بعض المباحات تدينًا، مثل ترك لبس النعال، وترك ركوب السيارات، والعزوف عن استعمال الوسائل والمصنوعات المباحة. والله أعلم.

(٢) أبو داود، الحديث (٤٩٠٤).

والخلاصة: إن موضوع التشبه من أخطر وأهم الموضوعات التي ينبغي أن يعنى بها المسلمون.

لأن المسلمين اليوم وقع كثير منهم في أشدّ أنواع التشبه وأعظمها على الدين، بل وقعت طوائف منهم، فيما هو كفروما هو ضلال، وما هو شرك، وما هو بدعة أو ما هو دون ذلك. وإن كان التشبه منه ما وقع فيه المسلمون قديمًا، لكنه لم يصل الأمر كما وصل الآن، فإنا نجد المسلمين في هذا العصر تبعًا لغيرهم في غالب الأمور، اللهم إلا من عصم الله، ومن ذلك القوانين الوضعية المستوردة، وترك دين الله في الأحكام، وفي التحاكم، فصار الكثير من المسلمين جماعات ودولاً يتحاكمون إلى الدول والمنظمات الكافرة، كتحاكمهم بل أكثر من تحاكمهم إلى الله ورسوله، ثم انهزام المسلمين وتخليهم عن دينهم، في كثير مما هو من قبيل الأخلاق والسلوك، والهدي الظاهر. بل أصبحت بعض بلاد المسلمين السنة فيها هي الشاذة، وأخلاق الكافرين وعاداتهم هي الأصل، وهذا أمر مُدرك لدى الجميع! ونحن في هذه البلاد ـ أعني المملكة العربية السعودية ـ بحمد الله ـ لا تزال غالب ظواهر سلوك المسلمين على الإسلام. ولا تزال كثيرمن الأخلاق والعادات والأحكام والنظم على الإسلام، وهذه نعمة من الله تعالى، يجب أن نحافظ عليها.

وأخيرًا: لا يسعني إلا أن أوصي نفسي، وإخواني، بتقوى الله سبحانه وتعالى؛ والنصح للمسلمين؛ ومحاولة إخراجهم من هذا الوضع الذي هم فيه؛ والحفاظ على ما بقي عندنا في هذا البلد ـ بحمد الله ـ من عقيدة التوحيد، وقلة البدع، وقيام الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعمل بالحدود، وتحكيم شرع الله، وغير ذلك من أمور السنة الظاهرة، مما يوجب

علينا صدّ هذا التيار العارم، الجارف من أحوال الكافرين، وأعمالهم التي أصبحت تفد إلينا اختياراً أو إجباراً!!

هذا وأسأل الله أن يحيينا مسلمين؛ وأن يُمِتْنَا مسلمين وأن يحشرنا مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وأن يهدينا إلىٰ صراطه المستقيم، وأن يُجنبنا طريق المغضوب عليهم، وطريق الضالين.

وصلىٰ الله وسلم، علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

* * * * *

المبحث الثالث

الجاهلية الجديدة

*****



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

تمهيد

لقد أصبح من الضروري أن يعلم كل مسلم ما يحيط به وبدينه وبأُمته وبلاده من أخطار من الداخل والخارج، والأمة في هذا الزمان تعيش في أحوال عصيبة، وفي محن متوالية؛ لما يواجهونه من تحدٍّ كبير من قِبل أَعدائهم في الداخل والخارج، وما يحدث من هذه الأحوال والمحن والتحديات لا يخص بلدًا دون آخر، ولا يخصّ مجتمعًا دون آخر، إنَّما المسلمون كافة في جميع الأرض الآن يستهدفون في دينهم وأخلاقهم ومصالحهم، وما أظنّها اجتمعت قوىٰ النفاق والكفر في زمن من الأزمان علىٰ حرب الإسلام كاجتماعها في هذه العصور المتأخرة، والمتبصر لمصالح دينه وأمته، والمتتبع لأحوال وأخبار العالم الآن يدرك ذلك جيداً، لكننا مع الأسف لايزال فينا شيء من الغفلة، والآن لا يُعذر أحد بعد هذه المنذرات التي أصبحت تدقّ أجراس الخطر من حولنا من الأحداث الجسام.

ومن أخطر ما ابتلي به المسلمون اليوم ظهور الجهل بينهم، ووقوع كثيرين منهم في خصال الجاهلية، وأعني بالجهل: الجهل بالدين والسنة، وأعني بالجاهلية، الجاهلية الجديدة التي روجتها الحضارة الغربية الحديثة.

و «**الجاهلية الجديدة**» عنوان وصفي، وإلا فالجاهلية واحدة قديمها وجديدها، إنما سيتركز الكلام علىٰ مظاهر وسمات الجاهلية المعاصرة وما امتازت به الجاهلية الجديدة من الأساليب ومن الوسائل التي لم تتهيأ للجاهليات القديمة.



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

تعريف الجاهلية

الجاهلية: مأخوذة من الجهل، ضد العلم، والجهل إنما هو الجهل بالحق، فالجهل بالله تعالىٰ، والجهل بحقوقه سبحانه وتعالىٰ، والجهل بدينه وبعبادته وبشرعه، والجهل بما أتىٰ به النّبي ﷺ وبما أتىٰ به الأنبياء من قبله؛ هو الجهل، قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ**﴾[**الزمر**: ٦٤]، وكل ما خالف الحق من قول أو عمل، من علم أو اعتقاد أو سلوك، فهو جهل، ويوصف بالجاهلية. ويشمل ذلك كل شؤون الحياة سواء في العقيدة والعبادة كما في الآية السابقة، أو في الأحكام والتشريع، كما قال تعالىٰ: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**﴾ ، أو في السلوك والأخلاق، كما قال تعالىٰ: ﴿**ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾.

وكثير من الناس اختل مفهوم العلم والجهل عندهم، خاصَّة في العصرِ الحديث، بسبب تِلْكم المفاهيم والأفكار التي وفدت علىٰ المسلمين والتي تصف علوم الكفار في العقائد والأفكار والآداب ـ التي هي جاهلية ـ تصفها بالعلم، وتصف ما عداها بالجهل، وهذا انقلاب بالمفاهيم، وانتكاس في العقول، وضلال مبين، وهو علىٰ سبيل الهالكين والمنافقين الذّين يأْمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، حيث صرف الله قلوبهم عن الحق، فظنوا أن الهدىٰ والعلم الذي جاء به الله وجاء به رسوله ﷺ هو الجهل، وزعموا أن ضلالهم وانحرافهم هو العلم، فهم منتكسون كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [**الملك**: ٢٢].

والعلم ـ كما هو معروف عند العلماء وأئمة الديِّن ـ إِذا أُطلق في كتاب

الله تعالىٰ أَو في سنةِ رسول الله ﷺ أَو علىٰ أَلسنة سلف هذه الأُمة، فإِنَّما يعني: العلم الشرعي اعتقاداً وقولاً وعملاً، أَما ما عداه من علوم الدنيا المفيدة فإنما هو علم مقيد، وقد يكون جهلاً إن سمَّاه النَّاس علماً، فمثلاً علم الطِّبّ لا يُسمىٰ بإطلاقه العلم، إنما يقال: علم الطب، مقيداً، فإذا قيل العلم في المفهوم الشرعي، فلا ينصرف إلا إلىٰ العلوم الشرعية، وكذلك إذا قيل «مثلاً» فلان جاهل، أَو أُطلقت كلمةُ الجهل فإنما يعني ذلك الجهل بدين الله، وعدم التَّفقه في الدين والعمل بغير مقتضىٰ السنة والشرع؛ لذلك لا نطلق علىٰ من لم يتعلَّم الطب «مثلاً» جاهلاً، أَو من لم يتعلَّم الهندسة جاهلاً، أَو من لم يتعلَّم الكيمياء والفيزياء وسائر العلوم التطبيقية، أَو الإنسانية جاهلاً، إنما يُقال: جاهل بالطب، أَو جاهل بالهندسة، إذًا لابد من التَّقييد إذا قُصد العلم أَو الجهل في غير العلم الشرعي، أَما إِذا جاءت كلمة العلم والعلماء مطلقة فإِنما تعني العلم الشرعي، وأما إِذا جاء إطلاق الجهل والجاهلين فإنما تعني من خالف العلم الشَّرعي أو لم يحصّله ويتفقه به، أو لم يعمل بمقتضاه.

وهذا هو المفهوم الصحيح للعلم مقابل الجهل، وهو المفهوم الذي دلَّت عليه نصوص الشرع ويقتضيه العقل السليم والفطرة.

وعلى هذا فالجاهلية تعني في هذا المفهوم الذي سأذكره: الجهل بدين الله سبحانه وتعالىٰ، والجهل بشرعه، إما علمًا أو عملاً، أم هما معًا، وكل ما خالف الشرع فهو جَهْل وجاهلية، لذلك قد تكون بعض العلوم المسماة بعلوم عند الناس قد تكون جاهلية بحتة، وقد تكون جهلاً كأكثر العلوم الإنسانية التي جاءت عن الغرب، والنَّظريات التي تخالف دين الله أو

تخالف الأخلاق القويمة، فإنما هي جهل وجاهلية بالمفهوم الشرعي، وإن سميت علومًا ونقلت إلينا على أنها علوم، فإنما هي جاهليات مظلمة.

إذًا كل ما خالف شرع الله من اعتقاد أو قول أو عمل أو سلوك فهو جاهلية هذا على وجه العموم.

وهناك إطلاقات خاصة للجاهلية وإطلاقات عامة عند أهل العلم، فقد تُطلق الجاهليةُ، شرعًا على الجاهلية الأولى، والمقصود بالجاهلية الأُولى: حال الأُمم التي خالفت الأنبياء عامة، وحال العرب الذين خالفوا دين الله ودانوا بالشِّرك والبدع والمحدثات والأهواء والفواحش قبل مبعث النبي ﷺ خاصة، لذلك جاء في تفسير الجاهلية الأُولى عند السَّلف في مثل قوله تعالى: ﴿**ولا تبرجن تبرج الجاهية الأولى**﴾ قالوا: فالجاهلية الأولى هي الجاهليات التي عليها الأقوام الذين خالفوا الأنبياء، وضرب بعضهم مثلاً بقوم نوح، وبعضهم خصصها بجاهلية العرب في عهد النبي ﷺ - أي قبل البعثة -.

كما ورد إطلاق الجاهلية كذلك على بعض خصالها، بمعنى أن الجاهلية قد تطلق على بعض الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال أو أنماط السلوك التي تخالف الحق، مثل العصبية للقوم، أو اللون، وغيرهما، قال تعالى: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ [الفتح: ٣٦]، وقال النبي ﷺ للصحابي الذي عَيَّر أخاه بأمه قائلاً: يا ابن السوداء: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»(١).

والجاهلية بأُصولها وسماتها وخصالها هي واحدة؛ قديمًا وحديثًا، لكن

(١) البخاري في كتاب الإيمان - باب المعاصي من أمر الجاهلية - «الفتح» ١/ ١٠٦.

كما قلت، الجاهلية الحديثة امتازت بتطور الأساليب والوسائل والشعارات والإمكانات، وبزيادة في المكر والخبث وتلبيس الحق بالباطل، فهي جاهلية مقننة، وقوىٰ الجاهلية الحديثة استفادت مما وصلت إليه البشرية من علوم تجريبية واستخدمتها في ترسيخ الجاهلية، وفي حرب الحق ولا تزال الجاهلية أقوىٰ ما تملكه الوسائل، فإنها لا تملك من الدليل ولا من البرهان ولا من وسيلة الإقناع ما يبرر هيمنتها ولا بقاءها، بل الأدلة وجميع وسائل الإقناع العقلية والفطرية والواقعية هي ضد الجاهلية، إنما الجاهلية الحديثة تملك الوسائل المغرية الخادعة والفتاكة، التي تريد أن تفرض بها مبادئها وأن تحارب الإسلام فيها، تحت شعارات العولمة وحوار الحضارات، وخدمة الإنسانية، لذلك فهي تعيش أولىٰ مراحل الانهيار والإفلاس، إن شاء الله، وتلكم سنة الله.

* * * * *

ما الجاهلية الجديدة؟

الجاهلية الجديدة هي:

الجاهلية الغربية التي تقوم على العلمنة، والإلحاد، والإعراض عن دين الله، وعلى الإباحية والمادية.

* **وترتكز الجاهلية الجديدة على الركائز التالية:**

١ ـ مقومات الجاهلية القديمة، الوثنيَّة الماديَّة، كالجاهلية اليونانية والإغريقية التي تقوم على الوثنية وتقديس العقل، وعلى الفلسفات الوهمية المصادمة للدِّين الحق.

والرومانية التي تقوم على الوثنية وتقديس الشهوات والماديات.

٢ ـ التأثير اليهودي المباشر في الفكر والأدب والسياسة والأخلاق والمفاهيم وغيرها.

٣ ـ النزعة إلى السيطرة وتحقيق الأغراض القومية، وقد نشأ عنها الاحتلال، والسيطرة الدولية، واحتكار كنوز الأرض وخيراتها لإشباع شهوة الرجل الأبيض في العقود الماضية، والهيمنة الاقتصادية والسياسية في العصر الحاضر.

٤ ـ الانحلال الخلقي ونشر الفوضى والإباحية وتقنينها وحمايتها باسم الحرية الشخصية.

٥ ـ العلمانيَّة والإلحاد، والخضوع لأهواء البشر باسم الديمقراطية، وفصل الدِّين عن الحياة والدولة، والتَّمرد على حكم الله وشرعه.

٦ - الإفادة من العلوم التجريبية والإنسانية التي بدأها المسلمون، وتسخيرها في خدمة مصالح الغرب وأتباعه.

وهذا - التفوق العلمي المادي - هو المقوم الذي بهر الأُمم المستضعفة، وأخضع الشعوب، وأتاح للغربيين فرصة الاستعلاء والغطرسة والتعالي، والفساد في الأرض، والصدّ عن دين الله، ولا يزال هذا هو المقوّم الوحيد الذي يخضع رقاب الأُمم الذليلة.

٧ - الديانة النصرانية المحرفة الضَّالَّة، واليهوديَّة المحرفة الحاقدة، والصَّليبية الاستعمارية.

٨ - المبادئ الرأسمالية الربوية، والاشتراكية المدمرة.

٩ - الاعتماد على الوسائل المادية للتمكين في الأرض، من النِّظام والانضباط والجد وتحمل المسؤولية، والصدق وحسن التعامل، والتخطيط والدراسات والإحصائيات العلمية.. ونحو ذلك، وهذا من أسباب التمكين إذا تخلفت أسباب التمكين الشرعية.

نبذة عن الغزو الجاهلي للعالم الإسلامي في العصر الحديث:

فإن من البدهيات التي لا يتمارى فيها العارفون أن الكفار - وبالأخص أهل الكتاب - لا يألون جهداً في التأثير على المسلمين في عقيدتهم وسلوكهم ويودون لو يكفرون مثلهم، أو يرتدون عن دينهم «الإسلام» على الأقل، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً** ﴾[النساء: ٨٩]، وقال سبحانه: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ**

الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

لذلك كانوا ـ دائمًا وأبدًا ـ علىٰ طول التاريخ الإسلامي لا يتركون وسيلة تخدم غرضهم هذا إلا سلكوها، أحيانًا بالوسائل الخفية، وهذا هو الغالب حين تكون الأُمة الإسلامية قوية مهيبة مهيمنة، وأحيانًا بالوسائل المعلنة والخفية، عندما يكون الكفار في مركز أقوىٰ، وهذا هو ما حصل في العصور المتأخرة حين قويت الدول الغربية، وضعف كثير من المسلمين وركنوا إلىٰ الذل والخمول، وإلىٰ التبعية، وقبل ذلك إلىٰ البدع والمحدثات في الدين، والإخلال بالتوحيد بالتمسح بالقبور والمشاهد والأضرحة، وتقديس الأموات والأحياء والتوكل عليهم من دون الله، وظهور الفرق والطرق التي شتت المسلمين وحرفتهم عن الصراط المستقيم.

هذا في غالب البلاد الإسلامية، ولم يسلم من هذا إلا القليل من أهل السنة والاتباع، وكانوا علىٰ حالين:

١ ـ نوازع من أهل العلم والصلاح ومن تبعهم من العامة الذين هم علىٰ الفطرة والاستقامة في أنحاء العالم الإسلامي، ويقلون في بلد ويكثرون نسبيًا في آخر لكنهم يعيشون الغربة.

٢ ـ وأتباع دعوة التوحيد والسنة التي قام بها الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب ومناصره الإمام محمد بن سعود، التي قامت وسط جزيرة العرب في منتصف القرن الثاني عشر الهجري وما بعده، والمتمثلة الآن بالمملكة العربية السعودية وما حولها، والتي حفظ الله بها الإسلام والسنة وأعز الله بها أهلها ظاهرين لم يضرهم من خذلهم ولا من عاداهم.

وإنه لمن أخطر وأشد الوسائل التي سلكها الغربيون للكيد للمسلمين

أخطبــوط الغــزو الفكري الرهـيب، وهو غــزو مـركـز هـادف، ومـدروس ومنظم، تعاونت فيه قوى تملك إمكانيات مادية ومعنوية وبشرية هائلة، تبدأ بالاستشـراق ثم الابتعـاث (التغـريب) فالتبشـير والاحـتلال، والإعـلام، ثم المؤسسـات والمنظمات المتـخصـصـة لهذا المجال، كـالماسـونيـة والصـهـيـونيـة والاستخبارات والأتباع.

*****



تاريخ الغزو الجاهلي الحديث للأمة الإسلامية

أشرت آنفًا إلىٰ أن كيد الكفار للإسلام والمسلمين مستمر وهو سنة من سنن الله في الحياة، لكنه يتغير في أشكاله ووسائله وأساليبه بمتغيرات الحياة وإمكانات البشر.

لذلك نجد له في العصر الحديث طابعًا مميزًا يختلف في شكله ووسائله عن أُسلوبه في القرون الإسلامية الأُولىٰ، والسبب في ذلك أن فترة هيمنة البدع والافتراق والركود الفكري والانحراف العقدي التي خيمت علىٰ العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري تعتبر فاصلاً زمنيًا بين تخلف الأُمة والحضارة الإسلامية عن قيادة البشرية، وظهور الحضارة الجاهلية الغربية وتَسَلُّمِها لهذه القيادة فإن المسلمين خلال هذه القرون، (وإن كانوا قد تفوقوا عسكريًا في ظل الدولة العثمانية، حتىٰ نهاية القرن الثاني عشر الهجري) إلا أنهم كانوا يتقهقرون عقائديًا وعلميًا وفكريًا لأسباب ربما يكون أهمها:

١ ـ الجهل بالدين عقيدةً وفقهًا.

٢ ـ كثرة البدع والخرافات وانتشار الطرق الصوفية الفاسدة والفرق الضالة والأهواء وتعلق عامَّة المسلمين بالقبور وتقديس الأموات والأحياء، ومن ثم ضعف الصلة بالله تعالىٰ والبعد عن السنن ونهج السلف.

٣ ـ دعوىٰ بعض الفقهاء المتأخرين بإغلاق باب الاجتهاد في ا لوقت

الذي كانت فيه الدولة العثمانية أحوج ما تكون إلىٰ تبني واستيعاب التقدم العلمي حيث كان الغرب قد بدأ من حيث انتهت الحضارة الإسلامية في الأندلس وبدأت النهضة العلمية والفكرية في الغرب تسير سيراً حثيثًا علىٰ أيدي خريجي الجامعات الإسلامية من أبناء الغرب ـ البعثات الغربية إلىٰ المدارس الإسلامية ـ وهم كثيرون[1]: وقد كانوا طلائع الغربيين علىٰ الحياة والحضارة الإسلامية. وما تلا ذلك من دراسة العلوم الإسلامية والاستفادة منها من قبل الغربيين، تلك الاستفادة التي بدأت تظهر ثمارها في الغرب بعد قيام الخلافة العثمانية وحين هم المسلمون ـ في القرنين الأخيرين بأن

---

(١) أذكر منها علىٰ سبيل المثال:

١ ـ جريردي أورالياك (٩٣٨ ـ ١٠٠٣م) ابتعث إلىٰ الأندلس ودرس في جامعاتها الإسلامية ثم رجع، فكان أوسع علماء عصره في بلده (فرنسا) حتىٰ وصل إلىٰ البابوية وأنشأ مدارس عربية بين قومه.

٢ ـ قسطنطين الإغريقي ـ توفي عام (١٠٨٧م) رحل إلىٰ بغداد وخراسان والشام ومصر والقيروان والهند ثم رجع إلىٰ بلاده.

٣ ـ ميخائيل سكوت (١١٧٥ ـ ١٢٣٦م) رحل إلىٰ الأندلس وتعلم فيها وترجم كثيراً من الكتب الإسلامية إلىٰ لغات غربية، وألف كثيراً من الكتب نقلاً عن المسلمي.

٤ ـ رايمند ولو ليو (١٢٣٥ ـ ١٣١٤م). تعلم العربية وحفظ القرآن، ثم رجع إلىٰ باريس وانضم إلىٰ الرهبانية وأشرف علىٰ مدرسة لتعليم العربية في ميراما، وتخرج منها رهبان كثيرون ودعا إلىٰ تعليم اللغات الشرقية ـ في أوربا. . للإفادة من الحضارة الإسلامية، وألف كثيراً من الكتب التي أفادها من العلوم الرسلامية وكانت سببًا في بذور الوعي في بني قومه.

٥ ـ بوستل (١٥٠٥ ـ ١٥٨١م). تعلم العربية وكثيراً من اللغات الشرقية واشترىٰ كثيراً من المخطوطات الإسلامية وصار استاذًا للعربية والعبرية في عهد فرنسوا الأول، حيث تخرج علىٰ يديه نفر من طلائع المستشرقين، ثم أستاذًا للعربية في جامعة فينًا وألف كثيراً من الكتب عن الإسلام والمسلمين راجع «المستشرقون» لنجيب العقيقي: ص١٢١، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٣ ـ ١٣٥، ١٢٠، ١٧١، ١٧٢ المجلد الأول.

يفيقوا، وجدوا الغرب قد سبقهم في مضمار العلم التجريبي، والتقدم المدني والصناعي سبقًا بعيدًا، فأصيبوا بصدمة الانبهار، وعقدة الشعورة بالنقص، فضعفت عندهم المناعة والمقاومة أمام الاحتلال والغزو الفكري، وكانت الأمة الإسلامية ـ فيما عدا الفئات والبلاد التي تأثرت بالدعوة السلفية المباركة ـ دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب ـ كانت الأمة تحت وطأة الفرق والطرق والبدع.

ومع الغزو الفكري، الذي جاء من الغرب، عبر الاحتلال والتبشير وفي أحضانه ـ نشأت الاتجاهات العلمانية الحديثة في العالم الإسلامي امتداداً للاتجاه المادي الحديث في الغرب وهذا الغزو يتمثل في حركات التبشير والاستشراق والاحتلال أولاً. ثم في البعثات واستيراد الأنظمة الغربية من قبل أكثر المسلمين أنفسهم ثانيًا.

لذلك سأعرض بإيجاز لتاريخ هذه الحركات كلها إن شاء الله تعالى:

(أ) تاريخ الاتجاه العقلي الجاهلي في الغرب[1]

لقد ظل التدين النصراني (الكنسي المحرف) هو السائد في الغرب، ونصوصه هي المتحكمة في حياة الناس ومصائرهم، وظل الأمر كذلك طيلة القرون السبعة عشر الميلادية، بالرغم من الآراء التحررية، التي أعلنها بعض المفكرين وطلاب البعثات الغربية، الذين درسوا في المدارس والجامعات الإسلامية، في الأندلس والمغرب، والذين اتصلوا (عبر الحروب الصليبية) بالشرق الإسلامي، وبالرغم من ظهور تلك الموجهة التحررية من أمثال لوثر (١٤٣٨ ـ ١٥٤٦م)، وكالفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م) . . حيث كانت لآراء هذين وأمثالهما أكبر الأثر في تحرر الغرب من سلطات الكنيسة المُتَحَكِّمة، وعصابات ما يسمىٰ (برجال الدين) هناك، ومع ذلك بقي سلطات الكنيسة هو الأقوىٰ، يُحَرِّق ويشرِّد ويقتل المفكرين، وفي القرن الثامن عشر الميلادي بدأ سلطانها يتقهقر بتقدم العلم وتَنَوُّر العقول، وظهر الاتجاه إلىٰ سيادة العقل أَو ما يسمىٰ (بالتنوير) والتحرر من تعاليم الكنيسة المتحجرة[2]، وتحكيم العقل، وإِطلاقه من إِساره، لينظر ويبدع، ويستنبط ويمارس الحياة

(١) راجع «الفكر الإسلامي الحديث» للدكتور محمد البهي: (ص٢٨١ ـ ٢٨٨).

(٢) وكثر المفكرون الذين قادوا الحركة العقلية، أمثال ولف ولسنج ونيتشه في ألمانيا، وفولتير وبيلي ولاندي في فرنسا، ولوك في انجلترا، فكانت ثورة عقلية عارمة شملت جميع أوجه الحياة ونشاطاتها العلمية والعملية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وهي حركة عقلانية مادية إلحادية علمانية رغم ما تحمله من وسائل وعلوم ومخترعات؛ لأنها لم تهتد بهدىٰ الله، فهوت بالبشرية إلىٰ الشقاء والقلق والانحراف الخلقي والفساد.

ويفكر في ملكوت السماوات والأرض ما استطاع، وكان هذا الاتجاه الذي تأثرت به أوربا أثناء اتصالها بالمسلمين، يعتبر بحق أساس التقدم العلمي الباهر الذي وصل إليه الغرب الآن.

ومع هذه الحركة العقلية حدثت ردة الفعل ضد الدين - كل دين - عنيفة بسبب موقف تعاليم الكنيسة الباطلة، فحدث هذا الانفصام المزعوم بين الدين والعلم، فقامت هذه الحضارة الغربية على المادية البحتة والعلمانية والإلحاد، فكان من جراء ذلك أن أصيبت البشرية بالخواء الروحي الذي لا يقل خطرًا على مصير الإنسانية من تعنت الكنيسة من قبل، فاتجه العلم والتقدم إلى تهديد البشرية بالدمار، وكلما زاد التقدم العلمي في الغرب زادت الفجوة بين الدين والحياة الواقعية، وبين المادة والروح، فأنشأ هذا الفصام أجيالاً حائرة قلقة، لا تعرف للفضيلة قيمة ولا للسعادة معنى، تحمل حتفها بعلمها وتقدمها، فاعتنقت مذاهب نكدة فاسدة تعذبت بها أيما عذاب..

كالشيوعية والرأسماليه والفوضوية[1]، والمادية والوجودية، والإلحاد، وكثرت النظريات الهدامة وحركات الهيبز والإباحية، وجاءت بعض هذه التيارات المتناقضة إلى العالم الإسلامي وساهمت في نشأة الاتجاهات والمذاهب الهدامة، وأبرزها العلمانية والحداثية والقوميات بين المسلمين.

هذا وكان لليهود والمنظمات والمؤسسات التي تخدمهم أكبر الأثر في توجيه هذه التيارات لإفساد الأديان والأخلاق.

---

(١) مثل الحركات الثورية الدموية، وعصابات التخريب والاختطاف والاغتيالات والسرقات.

(ب) الدراسات الاستشراقية

عندما نبحث تاريخ الاستشراق، نجد أنه مر بمرحلتين أُولاهما ـ ولا تهمنا كثيراً في مثل هذا البحث ـ مرحلة سلبية بالنسبة للغربيين، وهي مرحلة النقل والتلمذة على المسلمين، حين كانت أُوروبا ترسل بعثاتها العلمية للاستفادة من الحضارة والعلوم الإسلامية المزدهرة في الأندلس والمغرب ومصر والشام، وسائر بلاد المسلمين، وهذه المرحلة مبكرة جداً، ولم يكن فيها المستشرقون إلا مجرد نقلة وعالة على المسلمين، وما كانت دوافعهم إلا إفادة قومهم وبلادهم في الغالب، وهذه الحركة الاستشراقية الأُولى هي التي بدأت منها بذور التنور الفكري والعلمي في أُوربا فيما بعد، كما ذكرت آنفًا، وهذه المرحلة كانت قبل الحروب الصليبية وقبل سقوط الأندلس الإسلامية.

أما المرحلة الثانية من مراحل الاستشراق: فهي مرحلة هادفة من قبل الغربيين، وهي مرحلة دراسة الإسلام أولاً ـ وهو المهم ـ عقيدة وشريعة وتاريخاً، ودراسة سائر أحوال الشرق وأديانه وعلومه وتاريخه.. والذي يهمنا هو الجانب الإسلامي في هذه الدراسات.

وهذه المرحلة تبدأ مع نهاية الحروب الصليبية وأُفول الحضارةَ الإسلامية في الأندلس مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي[١]، حيث بدأت دراسة الإسلام وتاريخه، بأُسلوب لا يخلو من العصبية، من أمثال: بوستل

(١) راجع «المستشرقون» نجيب العقيقي: (١/ ٥٤).

(١٥٠٥-١٥٨١م) وفاتيه (١٦١٣-١٦٦٧م) والباجو (توفي: ١٥٢٠م) والأب ماراتشي (١٦٠٢-١٧٠٠م)[1].

ومع بداية القرن التاسع عشر بدأت الدراسات الاستشراقية بأُسلوب أشمل وأكثر تنظيماً، بروح دينية صليبية ويهودية واستعمارية غربية حاقدة ماكرة، أكثر من ذي قبل.. لأنها واكبت الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي، وكانت أهم دوافعها خدمة هذا الاحتلال لزعزعة، كيان المسلمين ماديًا ومعنوياً، كما أنها انبثقت عن روح الانتقام من الأُمة الإسلامية التي غزت أُوربا في عقر دارها، وطردتها من الشرق كله، وقضت على الدولة النصرانية، ولا ننسى أن الغرور العلمي المتغطرس الذي يحمله الغربيون بعد تقدمهم الحضاري، جعلهم يَدْرُسُون الإسلام بروح الناقد المحتقر، والخَصْم والحَكَم، والعدو المنتصر، والمتشفي المنتقم.

ومع الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي، في القرن التاسع عشر، بدأت البحوث والدراسات والأفكار الاستشراقية، تغزو العالم الإسلامي من الداخل، وتشكل عاملاً أساسياً من عوامل نشر وإبراز الاتجاهات العلمانية والمذاهب الهدامة، وكانت كلها تدور حول الآتي[2]:

١- إثارةُ الشبه والاعتراضات في العقيدة الإسلامية.

٢ - الطعنُ في صحة القرآن الكريم والسنة النبوية والرسول ﷺ

---

(١) راجع «المستشرقون» نجيب العقيقي: (١/ ٣٦٠-٣٦١).

(٢) راجع في ذلك:

١- «الاستشراق والمستشرقون» لمصطفى السباعي: (ص٢١-٢٥).

٢- «أجنحة المكر الثلاثة» عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: (ص٩٤-٩٨).

٣- «الفكر الإسلامي الحديث» د. محمد البهي: (ص٤٨-٦٣).

ورسالته.

٣ ـ التشكيك والتهكم بالمغيبات بدعوىٰ أنها تخالف العلم الحديث ولا تثبت علميًا!

٤ ـ إثارة الشبه حول الشريعة الإسلامية في أُصولها ومناهجها، وأحكامها، ودعوىٰ أنها من بقايا العصور المظلمة، ولا تصلح للعصر الحديث، ومن ثم إبعادها عن مجال التطبيق، واستبدال الأنظمة الوضعية والقوانين البشرية بها.

٥ ـ إعادة تقييم الإسلام، عقيدة، وشريعة، وتاريخاً من جديد علىٰ ضوء النظريات المادية الإلحادية الحديثة، ومن ثم التطاول لإدانة الإسلام، أو اتهامه بالقصور، أو اعتبار الإسلام وأحكامه مجرد تراث تاريخي وتقاليد عفا عليها الزمن!

٦ ـ فصل الأجيال المسلمة بكل وسيلة عن ماضيهم الإسلامي، وربطهم بالغرب بدعوىٰ الاحتياج والمسايرة والتطوُّر.

وكل هذه البحوث والدراسات صارت هي المرتكز الأول في الاتجاهات الفكرية الحديثة، كما سنرىٰ بعد إن شاء الله.

* * * * *

(جـ) الاحتلال الغربي لديار الإسلام

قد لا يهمنا كثيراً تاريخ الاستعمار قبل القرن الثامن عشر؛ لأنه لم يكن ذا خطر بالنسبة لموضوعنا هذا، فالاستعمار الهولندي والبرتغالي لبلاد الإسلام كان قبل هذا التاريخ، وكانت أهم دوافعه مادية وانتقامية، لم تحمل فكراً غازياً عقدياً في الغالب.

فأول استعمار غربي - كان له خطره وأثره الحضاري - على العالم الإسلامي، تلك الحملة التي قام بها نابليون بونابرت، امبراطور فرنسا، على مصر عام ١٧٩٧م حتى عام ١٨٠١م[1]، فلهذه الحملة أثر كبير في تكوين عقليات بعض المسلمين، الذين أصيبوا بالانبهار والإعجاب بمظاهر ما يُسمى بالمدنية والتقدم العلمي، الذي كانت تحمله الفرقة الفرنسية، فقد جهز نابليون حملته بأشياء كثيرة من مظاهر الإنتاج الغربي، وبفريق من العلماء والباحثين في سائر التخصصات العلمية، منها مجموعة من المستشرقين المتخصصين بالدراسات الشرقية والإسلامية، مما كان له أكبر الأثر عند ضعاف العقول من أنصاف المتعلمين من المسلمين، الذين ألفوا حياة الركود والسلبية والتواكل، وفقدوا صفاء العقيدة وسلامتها بسبب هيمنة الأفكار والطقوس الصوفية والقبورية السائدة.

وقبل ذلك بدأت حرب الانجليز في الهند المسلمة بعد عام ١٧٥٦م فأسست بريطانيا شركة الهند الشرقية، ثم تحولت هذه الشركة إلى حكومة

---

(١) راجع «الإسلام والثقافة الغربية لأنور الجندي»: (ص١٨).

عـام ١٨٥٨م فعملوا على القضاء على قوة الإسلام وانتشاره هناك بشتى الوسائل، واهتموا بإيجاد فرق واتجاهات عقلية؛ لإضعاف العقيدة الإسلامية، التي تجعل المسلم يشعر بالاستعلاء والعزة، وعدم الاستسلام للأجنبي، فأيدوا حركة السيد أحمد خان، التي قامت[١] على تقريب المسلمين للإنجليز والدعوة إلى قبول الاحتلال والرضا به، والتقليل من أهمية الجهاد، وتفسير العقيدة والفكر الإسلامي على ضوء الفكر الغربي ليساير الحياة الغربية.

وبعد الحرب العالمية الأولى اقتسم الغربيون بلاد الإسلام كغنائم فاحتل الفرنسيون الشام عام ١٩٢٠م، والانجليز العراق أيضًا عام ١٩٢٠م، وقبل ذلك كانت مصر تحت الاحتلال الانجليزي منذ عام ١٨٨٢م، ثم السودان منذ عام ١٨٨٩م[٢]، كما كانت الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي منذ عام ١٨٣٠م[٣] ثم تونس، وليبيا التي احتلها الإيطاليون.

وكان للانجليز نصيب الأسد من البلاد الإسلامية فبقي تحت سيطرتهم الهند وجنوب الجزيرة العربية والخليج العربي والعراق ومصر والسودان وغيرها.

وقد ركز المحتلون الغربيون، أثناء إقامتهم في العالم الإسلامي، على الأمور التالية[٤]:

---

(١) راجع «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار» للدكتور محمد البهي: (ص٤١، ٤٢، ٤٣).

(٢) راجع «تاريخ الأمة العربية» ـ عصر الانبعاث ـ محمد أسعد طلس: (ص٧٤ ـ ٨٧).

(٣) المصدر السابق.

(٤) راجع الكتب التالية: =

ـ تشجيع التنصير[1] وتمكينه في البلاد الإسلامية.

ـ فصل الدين «الإسلام» عن الدولة والحياة، وإلغاء العمل بالشريعة الإسلامية.

ـ تربية جيل من أبناء المسلمين على الفكر والسلوك الغربي وعزله عن عقيدته وتاريخه وأُمته، ثم اصطفاء نخبة من هؤلاء ليصنعهم الغرب على عينه، وقد ولاهم مقاليد البلاد بعد خروجه منها، فعاثوا فيها فساداً، ولا يزالون.

ـ توجيه مناهج التعليم والتربية والإعلام والثقافة والفكر والأدب، وغيرها، وصبغها بالصبغة الغربية الخالصة، وإبعاد المفاهيم الإسلامية الأصيلة.

ـ العمل بكل وسيلة على عرقلة النهضة الإسلامية فكريًا وسياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، لتبقى بحاجة إلى الغرب، فيأمن عودة روح الجهاد بين المسلمين، لذلك اهتم كل الاهتمام بضرب الحركات الإسلامية.

ـ إثارة الشبه والشكوك وتشجيع المثيرين لها بين أنصاف المثقفين

= ـ «التبشير والاستعمار» مصطفى الخالدي وعمر فروخ، ط٥، ١٩٧٣م.

ـ «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»، ط٢، ١٣٩٧هـ.

ـ «أجنحة المكر الثلاثة» عبدالرحمن حسن حنبكة ـ فصل: خطط العدو لغزو الإسلام: (ص٢٠١).

ـ «الفكر الإسلامي الحديث»: (ص٢٧ ـ ٤٧).

(١) درج الكتاب والباحثون ـ تبعًا للغربيين ـ على تسمية حركات التنصير بـ (التبشير) وهذا خطأ فاحش؛ لأن هذا النشاط إنما يسمى تبشيراً من المنطلقات والأهداف النصرانية التي تبشر بالدعوة إلى الديانة النصرانية المحرفة، فلذلك أرى أن يسمى (التنصير).

والشباب الناشئين.

ـ عرض الأفكار والنظريات والفلسفات الغربية الهدامة وإيجاد خلايا لها بين المسلمين، كالشيوعية، والاشتراكية، والبعثية، والوجودية، والقومية، والوطنية، والإباحية، والعلمانية، والحداثة... إلخ، وتمكين أصحاب تلك الاتجاهات في الداخل من مراكز القيادة والتوجيه.

ـ تشتيت بلاد الإسلام، جغرافيًا بتقسيمها إلى دويلات، وغرس المشكلات الحدودية بينها، وفكريًا بتشجيع الفرق والأقليات غير الإسلامية، وسياسيًا بإيجاد الاتجاهات السياسية والأحزاب لكل دولة.

ـ بث الأفكار الثورية، والاتجاهات الفوضوية، وتشجيع وإثارة المراهقين فكريًا وسياسيًا؛ لضمان عدم الاستقرار السياسي في البلاد الإسلامية، وذلك بتكوين وتشجيع الأحزاب السياسية التي تحتوي الأفراد ذوي الميول الحادة وحب المعارضة وعشاق الشهرة.

* * * * *

(د) التبشير [التنصير]

أما التنصير فإنه بدأ في جاوه وسيلان (من العالم الإسلامي) منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادي[(١)]، وفي القرن التاسع عشر ظهر التنصير بشكل منظم في العالم الإسلامي كله، فانتشرت الإرساليات، والمدارس التبشيرية في كل مكان، وكان التنصير هو الأداة الأولىٰ التي يسخرها الاحتلال لأغراضه المتعددة، فقد عرّف المنصرين علىٰ الواقع المؤلم الذي يعيشه المسلمون الذين أخذوا يبحثون عن خلافتهم، حين ضيعوها بتفرقهم وجهلهم وخمولهم، وتواكلهم، فغزاهم المنصّرون في عقر دارهم، ووصل الأمر بهم - أي بالنصارىٰ - إلىٰ أنهم كانوا يعقدون مؤتمراتهم لهدم كيان المسلمين، والكيد للإسلام، في عقر دار المسلم في سائر بلاد الإسلام، وخاصة المدن الزاخرة بالعلماء والمثقفين والمفكرين.

فعقدوا في القاهرة أكثر من مؤتمر تنصيري.

وكذلك في القدس أكثر من مرة أيضاً.

وفي تونس، وقسطنطينة بالجزائر، وفي لكنوء بالهند، وفي بيروت وفي أدنبره والبحرين[(٢)].

فيا ترىٰ أين المسلمون...؟!

---

(١) راجع «الغارة علىٰ العالم الإسلامي» تأليف شاتليه، تعريب محب الدين الخطيب ومساعد اليافي: (ص٣٠ - ٣١).

(٢) المصدر السابق: (ص٤٩ - ١٤١)، و«الإسلام والثقافة الغربية» لأنور الجندي: (ص٩٠).

(هـ) انفتاح العالم الإسلامي على الغرب

لقد تفطن بعض سلاطين الدولة العثمانية مبكرًا، لأهمية التقدم العلمي للدولة الإسلامية، خاصة من الناحية العسكرية، حين رأىٰ الدول النصرانية قد سبقت في هذا المضمار، فقد استعان السلطان سليم الثالث بالنظم الغربية العسكرية واستجلب المهندسين الأجانب لتعليم المسلمين الصناعات والنظم العسكرية المبتكرة عام ١٧٩٦م، لكنه لقي[١] معارضة من بعض العلماء ـ خوفًا علىٰ الأُمة الإسلامية ـ لكن دون أن يوجدوا البديل، أو يهتموا في تعمير وتقدم الدولة الإسلامية من الداخل وبإمكانات المسلمين أنفسهم، مما كان له أسوأ الأثر فيما بعد، ووقفت الانكشارية (من الجيش التركي) مع هؤلاء، والسلطان سليم الثالث حين حاول التطوير لم يعمل بوسائل الحيطة لحفظ الكيان الإسلامي فكريًّا وعقائديًّا.

ثم جاء السلطان محمود الثاني وقضىٰ علىٰ الانكشارية عام ١٨٢٨م فتمكن من إدخال النظم والصناعات العسكرية الحديثة[٢] أيضًا.

وكذلك فعل محمد علي في مصر عام ١٨٠٥م فقد أرسل بعثات من أبناء المسلمين، للدراسة في الغرب، وفي الوقت نفسه افتتح والي تونس كلية للعلوم الحربية، كل أساتذتها غربيون[٣]، لكنه حين فعل ذلك لم يحتط للحفاظ علىٰ العقيدة الإسلامية لدىٰ المتعلمين من أبناء المسلمين مما جعلهم

(١) انظر «الإسلام والحضارة الغربية» محمد محمد حسين: (ص١٢، ١٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

بدافع إعجابهم بمعلميهم الغربيين يتصفون بالنزعة العلمانية، بل يحاولون تقليدهم تقليداً أعمى حدا بهم إلى التنكر لدينهم وأُمتهم.

وفي إيران أيضًا، افتتحت كلية للعلوم والفنون عام ١٨٥٢م قامت على أساس غربي بحت[١].

لقد كانت هذه الخطوات تبدو طبيعية، تقتضيها المصلحة أول الأمر، إنما كانت تنقصها الحكمة والحيطة والوعي، من قبل المسلمين أنفسهم، لا سيما بعض العلماء، الذين رفضوا بشدة الاستفادة من الغرب دون قيد ولا شرط، والحكام الذين قبلوا وأقبلوا على الاستفادة من الغرب دون قيد ولا شرط، كلا الفريقين جنى على الإسلام ولا شك، وعلى أبناء المسلمين الذين تعلموا العلوم الوافدة.

المهم أن الصراع انتهى آخر الأمر بانتصار المستغربين، وخسرت الأُمة الموقف المعتدل، الذي يفيد من الغرب بقدر ما يقوي الأمة، ويلحقها بمن سبقها، في مضمار الصناعات والعلوم النافعة، التي لا تصطدم مع العقيدة الإسلامية، ويجعل الأُمة تستغني عن الاعتماد على أعدائها في العلوم والصناعات، ويقيم الحياة والدولة الإسلامية على الإسلام.

فجاء بعد ذلك السلطان عبدالمجيد عام ١٨٣٩م في تركيا فأعلن ما يسمى «بالإصلاح» ورفع شعارات الحرية الشخصية، والحرية الفكرية، بالمفهوم الغربي، وتسوية المسلمين بغير المسلمين، وأدخل التنظيمات المستوردة من الغرب.

وكذلك فعل إسماعيل في مصر (١٨٦٣م-١٨٧٦م) فدعا إلى أن مصر

---

(١) المصدر السابق.

قطعة من أُوربا، وأكثر من الغربيين فيها، وأنشأ المحاكم المختلطة وعدل الأنظمة والقوانين، طبق القانون الفرنسي[١].

وفي هذه الأثناء عاد كثير من المبتعثين ـ من أبناء المسلمين ـ من الغرب إلىٰ بلادهم، وكثرت البعثات الجديدة، وجاءت تحمل أفكار الغربيين، لا علومهم وتقدمهم، جاءت بأفكار جاهلية لا تمت إلىٰ الإسلام، ولا إلىٰ العلم والتقدم بصلة، فبدأت حركة التغريب في العالم الإسلامي علىٰ أيدي هؤلاء، دون وعي، ولا بصيرة، ولا تعقل، تدفعها أهواء المستغربين، وأطماع أساتذتهم الغربيين، حيث بدأ علىٰ أيدي هؤلاء؛ ما يُسمىٰ بحركة اليقظة أو النهضة، وتشكلت بذور الاتجاهات العلمانية الحديثة التي نحن بصدد بحثها.

وكان من أوائل البعثات إلىٰ الغرب رفاعة الطهطاوي من مصر (١٨٠١م ـ ١٨٧٣م) وخير الدين التونسي (١٨٣٠م ـ ١٨٧٩م)[٢] وكلاهما درس في فرنسا في وقت متقارب وكانت الحضارة الغربية في أوج تقدمها فأعجبا بالغرب إعجابًا ملك عليهما عقليهما، وذهلا للفارق بين أوضاع المسلمين، وحال الغرب هناك، فجاء كل منهما بهذه النفسية المنهزمة والعقلية الغربية، فأخذ ينادي بشعارات غربية دون بصيرة ـ وقد يكون عن سذاجة وصدق عاطفة، فيما يبدو ـ وأخذ يشيد بالغرب والغربيين، وينادي بالحرية، والتغني بالأمجاد الجاهلية القديمة والوطنية والتسامح الديني، تقليداً للغرب، وحاول كل منهما أن يخضع تعاليم الإسلام وأُصوله للمفاهيم الغربية التي تأثر بها، فلقد دعا كل منهما إلىٰ تقليد

(١) انظر «الفكر العربي المعاصر» أنور الجندي: (ص٧٤).
(٢) راجع «الإسلام والحضارة الغربية» د. محمد محمد حسين: (ص١٨، وما بعدها).

الغربيين، حتىٰ في أساليب المعيشة والأخلاق، وهذا ولا شك خطأ وإن كان عن سذاجة!

وفي الهند انبرىٰ السيد أحمد خان (١٨١٧م ـ ١٨٩٨م)[١] الذي زار أُوربا وأُعجب بالغرب أيما إعجاب، فدعا المسلمين إلىٰ مصالحة الانجليز، وبذل جهوداً جبارة في إخماد الثورة ضد الانجليز، التي قامت عام ١٨٥٧م ثم أعلن عن حركته العلمانية المستغربة، والتي قامت علىٰ الأُصول التالية[٢]:

ـ تجديد الفكر الإسلامي وتفسير القرآن علىٰ ضوء العلوم الغربية الحديثة.

ـ الاتصال المباشر بالغرب، وخاصة الانجليز ـ والنهل من علومهم دون تحفظ ولا تمحيص.

ـ إعادة النظر والتشكيك في المغيبات والأُصول الإسلامية التي لا تصدقها ولا تؤمن بها العقلية الحديثة في الغرب.

ـ شرعية الاحتلال الانجليزي لبلاد المسلمين، وتغيير مفهوم الجهاد لدىٰ المسلمين ليتفق مع الأفكار الغربية ولا يكون موجهًا ضد الاحتلال، والدعوة إلىٰ التسامح الديني بين المسلمين والكفار، وبرهن علىٰ ذلك بتفسير التوراة والإنجيل.

---

(١) راجع «العروة الوثقىٰ» لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده: (ص ٤١٢) مقالة لجمال الدين (الدهريون في الهند)، و «الفكر الإسلامي الحديث» د. محمد البهي: (ص٣٨ ـ ٤٢)، و «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» لأبي الحسن الندوي: (ص٧١).

(٢) المصادر السابقة.

ـ الاهتمام بنهضة المسلمين علميًّا وفصل العلم عن الدين، والإيمان بالمبدأ العلماني المادي[1].

وعلى هذا يبدو أن حركة السيد أحمد خان هي أول اتجاه علماني فكري حديث قام بشكل منظم في العالم الإسلامي.

ثم جاء ضياء كوك ألب (١٨٧٥م) في تركيا ودعا بصراحة إلى سلخ تركيا من ماضيها القريب (الإسلامي)، وتكوينها تكوينًا قوميًّا وطنيًّا يرجع بها إلى حضاراتها القديمة، قبل الإسلام[2]، بذلك وجد الاتجاه الثاني، من الاتجاهات الفكرية الحديثة في العالم الإسلامي، بعد اتجاه السيد أحمد خان.

بعد ذلك اندلعت الاتجاهات الفكرية العلمانية في كل مكان، مع الاتجاهات السياسية والقومية والطائفية وغيرها، وبدأ تيارها الجارف يجتاح العالم الإسلامي كله، ممثلاً في جهود الاحتلال، والتنصير، والأساتذة والموظفين الغربيين، والطوائف والأقليات غير المسلمة، والمستغربين من أبناء المسلمين، واتخذ شتى الوسائل، من جمعيات سرية وعلنية، وصحف ومجلات ونشرات، ومدارس، ودور نشر، وأحزاب، وقد خلت الساحة ـ اللهم إلا القليل ـ من العلماء المسلمين الأكفاء، لصد هذا التيار، عن وعي وإيجابية وجدارة.

وهكذا جنى المسلمون ـ حين ألقوا فلذات أكبادهم في أحضان الغرب ـ

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) راجع «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» لأبي الحسن الندوي: (ص٣٩، وما بعدها).

جنوه علقمًا بتجرعونه ولا يكادون يسيغونه، فقد جاء أبناؤهم غزاة ناقمين علىٰ دينهم وحضارتهم وأُمتهم، جاءوا بالأفكار الهدامة والأخلاق الهابطة، والرذيلة، ولم يفيدوا من العلم والتقدم شيئًا يذكر.

كما ينبغي أن لا ننسىٰ الدور الذي لعبته الأقليات غير المسلمة في العالم الإسلامي، خاصة النصارىٰ ـ وبالأخص نصارىٰ لبنان ـ فقد نشطت هذه الأقليات في نشر الأفكار والمفاهيم الغربية، ومناهضة الخلافة، والجامعة الإسلامية، والاعتراض وإثارة الشبه حول تطبيق الإسلام نظامًا ودستور دولة، بدعوىٰ عدم ملاءمته للعصر، ولأن الجماهير ليست كلها مسلمة، وكان ذلك باسم الحرية الدينية، والتطور، وحرية الفكر، وقد نشطت هذه الأقليات في تقويض الدولة الإسلامية، وترويج الأفكار الهدامة عبر الجمعيات والصحف والترجمة والتأليف والمدارس[1]، لأنها تملك أفضل الوسائل لذلك.

واجتاحت الأُمة الإسلامية تيارات عاصفة، عقائديًّا وفكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، وكان أخطرها تلك الاتجاهات العلمانية الجاهلية التي باتت تسعىٰ إلىٰ تقوض أُسس الإسلام، وعقائده الأصيلة من الداخل، وفي نفوس الأجيال الناشئة، لتهدم البناء الإسلامي من قواعده ـ ولن تفلح بإذن الله ـ ونشطت هذه الاتجاهات مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي نشاطًا هائلاً، وقد خلا لها الجو، وكأن أكثر رواد هذه الاتجاهات من تلامذة

---

(١) نذكر من هؤلاء أمثال: شبلي شميل، وفرح أنطون، وفرنسيس مراش، ورزق الله حسون ويعقوب صنوع، وأديب إسحاق، وفيليب حتىٰ، وجرجي زيدان.
راجع «الفكر الغربي المعاصر»: (ص٤٢).

المستشرقين[(١)]، الذين صنعهم الغرب علىٰ عينه.

ولم يطلع ليل القرن الميلادي العشرين، إلا وقد آتت هذه الجهود ثمارها النكدة في المسلمين، وهيمنت طلائع العلمانية الجديدة في تركيا ومصر، وسائر بلاد المسلمين، وبدأت علىٰ يد هؤلاء معركة ما يُسمىٰ بالصراع بين القديم والجديد[(٢)]، والحق أنها معركة التحرر من الإسلام من الداخل، فقامت حركة منظمة قوية عارمة علىٰ أيدي عصابة متماسكة يحكمها الهدف الواحد، والمصير الواحد، وتوزعت حسب تخصصات أفرادها وقدراتهم، في السياسة والأدب والفكر والتعليم والثقافة والإعلام وغيرها، ومنهم من ساهم في أكثرها كالدكتور طه حسين!

وأكثر ما تتضح الاتجاهات العلمانية التي تهمنا، في تلك المؤلفات التي انهالت علىٰ الناس في كل جوانب الإسلام وأُصوله إنكارًا أو تشكيكًا وتشويهًا وتحريفًا، أو تهكمًا وسخرية بقيم الإسلام ومثله، ومطالبة باستبداله بالإنتاج الغربي الراقي - علىٰ حد زعمهم - بصراحة حينًا وبالمراوغة والمكر أحيانًا، فكان النصف الأول - من هذا القرن - كله بحق عهد الإنتاج الفكري للاتجاهات الجاهلية الحديثة، حيث ساهم أكثر روادها في هدم جانب أو أكثر من جوانب الفكر والسلوك الإسلامي.

ففي عام ١٩٠٠م أخرج قاسم أمين كتابيه: (تحرير المرأة)، (والمرأة الجديدة)[(٣)].

---

(١) من أشهر هؤلاء: الدكتور طه حسين، والدكتور أحمد زكي أبو شادي، وسلامة موسىٰ، والدكتور أحمد زكي (محرر مجلة العربي).

(٢) راجع «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» (٢/ ١٩٠ - ٢٨٧) طبعة عام ١٣٨٩هـ.

(٣) راجع «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»: (ص١٠٨) الطبعة الثالثة.

ثم نشر سلامة موسىٰ كتابه: (اليوم والغد) وهو مجموعة مقالات نشرت بين عام ١٩٢٥م - ١٩٢٦م دعا فيه إلىٰ ترك الإسلام واللغة العربية صراحة[١].

وكتب الدكتور طه حسين كتابه: (في الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦م طعن فيه بصحة بعض القصص التي وردت في القرآن وزعم أن القرآن نتاج بشري، وأشياء أُخرىٰ تمس العقيدة في الصميم[٢]، ثم مقالاته وبحوثه وكتبه تباعًا، فيها التشكيك والطعن في الإسلام بكل وسيلة سواء ما كان في غير الإسلاميات مثل: (مستقبل الثقافة في مصر)، و (في الأدب الجاهلي) و (حديث الأربعاء)، ونحوها، أو ما كان في إسلامياته، ولا تقل خطراً عما قبلها مثل: (علىٰ هامش السيرة) و (الفتنة الكبرىٰ)، التي لم تسلم منها العقيدة الإسلامية، وقد تجرد فيها من كل شيء حسب مبدئه إلاَّ من الدس والطعن والتشكيك في القيم والأخلاق الإسلامية!

وكتب الشيخ علي عبدالرازق كتابه (الإسلام وأُصول الحكم) عام ١٩٢٥م زعم فيه أن الإسلام لا صلة له بالدولة، أنه بريء من التدخل في السياسة والحكم والقضاء.

وكتب الدكتور محمد حسين هيكل كتابه (حياة محمد - ١٩٣٥م) اهتم فيه بالجانب الإنساني، في حياة الرسول ﷺ وترك جوانب الوحي والنبوة والغيب وأنكر المعجزات، بدعوىٰ أن العلم الحديث لا يصدقها، وعرض السيرة النبوية علىٰ نمط الدراسات الغربية المادية.

---

(١) انظر «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»: (ص/ ٢٢١ - ٢٢٨).

(٢) المصدر السابق.

وكتب الدكتور أحمد أمين موسوعته الإسلامية، في تاريخ الحياة العقلية للأمة الإسلامية في (فجر الإسلام وضحاه وظهره) أكد فيه أثر الجانب العقلي في العقيدة الإسلامية، وقد تأثر بالعقلية المادية الغربية في بعض دراساته وهذا ما سأعرض له في مقالة أخرىٰ إن شاء الله.

وكتب الشيخ محمود أبو ريَّة كتابه (أضواء علىٰ السنة المحمدية) طعن فيه بالسنَّة النبوية وحجيتها طعنًا مكشوفًا، كما طعن في عدالة بعض الصحابة رضي الله عنهم.

وكتب محمد أحمد خلف الله (رسالة ماجستير) زعم فيها أن القرآن اشتمل علىٰ الخرافات والأساطير، وطبعها في كتاب بعنوان (الفن القصصي في القرآن).

هؤلاء من المشاهير والرُّواد في مصر وحدها، ولم تكن تركيا وبقية بلاد العالم الإسلامي بأقل حظ منها.

وهكذا نشأت الجاهلية الجديدة وعشعشت وباضت وفرَّخت وآتت ثمارها الخبيثة النكدة في العالم الإسلامي، ولا تزال هي المهيمنة فعليًّا علىٰ أكثر البلاد الإسلامية، لكنا نرىٰ بحمد الله بوادر الصحوة الإسلامية المباركة، تحمل تباشير النصر والعزة للإسلام والمسلمين بإذن الله.

* * * * *

من خصال الجاهلية وأصولها وسماتها

والمقام لا يتسع لسرد جميع خصال الجاهلية، لكني أذكر هذه الخصال على وجه الإجمال، وسأُحاول ربط الجاهلية الأولى بالجاهلية الحديثة.

الخصلة الأولى: الحكم بغير ما أنزل الله:

ومنه الاعتراض على شرع الله أو الإعراض عنه، ومنه تشريع وسن ما لم يأْذن به الله من القوانين والشرائع والنظم، ومنه التَّحاكم إلى الطاغوت - أي إلى كل ما سوى دين الله تعالى ومنه وضع الأنظمة دون عرضها على شرع الله، ومنه الصَّدّ عن سبيل الله.

وهناك كثير من النصوص تشير إلى هذا المعنى في الجاهلية، مثل قوله تعالى: ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقولم يوقنون** ﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿ **يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمرو أن يكفروا به** ﴾ ومثل الإشارة في القرآن إلى الذين عُبدوا من دون الله ممن شرعوا للناس بغير شرع الله كعمرو بن لحيّ الخزاعي وغيره، وقال الله في هؤلاء: ﴿ **شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله** ﴾.

وهذه السمة هي أخطر وأبرز سمات الجاهلية الحديثة.

وهي المتعلقة بالأنظمة والقوانين وهي لا تزال أنكى وأقوى وسائل العلمانيين التي بها استطاعوا أن يحرفوا الأُمة الإسلامية عن دينها وعن شرعها القويم، واستطاعوا بها أن يروجوا الانحراف والرذيلة، وأن يمكنوا الفساد بقوة النظام وبحماية النظام.

إن أعظم مظاهر الإعراض عن شرع الله تعالىٰ هي تلك القوانين التي سُنَّت للبلاد الإسلامية (إلا القليل) وهي قوانين وضعية خالصة لم تستمد من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وليست مما أذن بها الله، بل هي تحارب الدين والفضيلة، وتصد عن سبيل الله وشرعه، والعجيب أن هذه الدساتير وضع فيها ما يضمن ـ حسب تصورات أُولئك البشر ـ عدم رجوع الأُمة إلىٰ الإسلام مرة أُخرىٰ، فمثلاً كانوا يقولون: إن مصدر التشريع هو الشعب، أو الأُمة، وأن الشعب هو مصدر السلطات.

وقد نصت علىٰ هذا غالبية الدساتير في البلاد الإسلامية! وبعضها وإن لم ينص علىٰ ذلك فهو واقع الحال، ولا أعرف بلداً إسلامياً يحكم بشرع الله علىٰ الحقيقة إلا المملكة العربية السعودية، أما غيرها فإن وجد فمجرد دعوىٰ أو علىٰ نهج غير سليم. والله أعلم.

وأحيانًا يقولون: الإسلام مصدر من مصادر التشريع، ولم يسمحوا أن يكون الإسلام هو المصدر الوحيد للتشريع، والآن تقوم معارك دستورية واسعة يجاهد فيها المسلمون في البلاد الإسلامية الأُخرىٰ جهاداً عظيمًا لإدخال كلمة: الإسلام هو المصدر للتشريع ـ إدخال كلمة فقط.

إن القوانين والأنظمة الوضعية هي التي تحكم أكثر البلاد وهي جاهلية خالصة، وجعلوا الإسلام والدين ـ بل الكتاب والسُّنَّة ـ مجرد أشياء تراثية من شاء أن يأخذ بها أو لا يأخذ بها، لكن بشرط ألا يفرضها علىٰ الآخرين؛ لأن هذا بزعمهم حجر علىٰ الغير.

نعم يردُّون حكم الله العليم الخبير؛ ويجبرون الناس علىٰ حكم البشر القاصر الضعيف الجاهل الذي يتبع هواه.

ومن المؤلم أنهم قد يحجرون على المسلم أن يقول: قال الله وقال رسوله، أو هذا حكم الله، أو أريد حكم الله، في المحافل والمحاكم أو في الدوائر أو في غيرها، حينما يطالب بحق أو يأمر بحق أو بفضيلة، ثم يزعمون أن أنظمتهم العلمانية تحقق الحرية!

إن أغلب البلاد الإسلامية، بناء على هذا الأصل، تعمل بحكم القوانين الوضعية لا تحكم بشرعة الله، محاكمها قانونية بحتة يضطر فيها المسلم المخلص المتدين إذا أراد أن يأخذ حقه أن يتحاكم إلى الطاغوت، ولا يجد من يحكم له بشرع الله، نعم. لا يجد حاكمًا ولا قاضيًا يحكم بشرع الله.

أليس هذه هي الفتنة والبلية والحالقة والحجر والعنت والتزمت؟ بلى والله.

وكذلك في مجال الحدود: فالحدود الشرعية في البلاد الإسلامية التي تحكم بالقوانين الوضعية لا يعمل بها ولا تقام، لا حد الزنا ولا حد السرقة ولا حد الشرب ولا التعزيرات الشرعية، ولا حد القصاص، ولا أي حد من الحدود، ولا يحكم بالشرع في هذه الأمور إلا القليل من البلدان الإسلامية، كالمملكة العربية السعودية، حرسها الله.

نعم بعض الأنظمة في البلاد الإسلامية سمحت بإقامة ما يسمونه الإعدام، مع أنه ليس من باب إقامة حد شرعي، إنما الإعدام لحماية الأنظمة الجاهلية لا لحماية دين الله، فلذلك الذي يسب الله ورسوله عندهم حر، والذي يسب الدين حر، والذي يسب السنة حر، أو ربما تعتبر هذه جنحة من

الجُنح، وغاية ما يمكن أن بعض الأنظمة ربما تعتبرها خطأ من الأخطاء؛ لأنها خدش للقيم أو سب لدين معترف به أو محترم، وربما يعاقبه القانون بعقوبة خفيفة.

لقد أدت القوانين الوضعية إلى إبعاد العلماء أهل الفقه والدين من العلماء بالشرع ـ الذي عناهم الله في كتابه ـ أدت إلى إبعادهم عن التأثير في حياة الناس، وإبعادهم عن مجالات التشريع والقضاء مع أنهم هم المرجع الشرعي ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ وهم أهل الحل والعقد شرعًا، وهم مرجع الأُمة ومرجع الدولة ومرجع الناس في دين الله تعالى؛ لأنهم يحكمون بكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

إن القانون الوضعي يحجر على العلماء أن يكون لهم أي أثر على الأُمة بتوجيه مهم إلا بالوعظ، وكذلك الوعظ مشروط بشروط، أهمها ألا يتطرق لما يتنافى مع العلمنة الجاهلية.

فالقوانين الوضعية أدَّت إلى استباحة المحرمات قانونًا ـ كما قلت ـ ومحاربة الفضائل قانونًا، وقد وصل الأمر إلى حد أن نجد الأنظمة في بعض البلاد الإسلامية تجرأت على تحريم الحجاب وفرض السفور والاختلاط وتحريم تعدد الزوجات، ونزع قوامة الرجل على المرأة ونحو ذلك، وما هو أعظم من ذلك.

الخصلة الثانية: تقديس الأشياء والأشخاص:

وهي أولى خصال الجاهلية ظهوراً في التاريخ، فأول ما ظهر في التاريخ من خصال الجاهلية في تقديس الأشياء والأشخاص، وقد ورد في الأثر

الصحيح عن ابن عباس القصة التي ذكر فيها سبب عبادة الأصنام من قبل قوم نوح، فإن أول شبهة وقعت في أذهانهم هي تقديس الأشخاص، وكان فيهم الصالحون العلماء الأئمة المهتدون، فكانوا إذا ماتوا صاروا يزورونهم في قبورهم لتذكر أعمالهم ليقتدوا بهم، فجاءهم الشيطان فأوحىٰ إليهم فقال: بدل أن تزوروهم ضعوا لهم صوراً. إلىٰ أن أوصلهم إبليس إلىٰ أن عبدوا تلك الصور واتخذوا لها تماثيل، وهذه أبرز سمات الجاهلية، التي ظهرت عند بعض المسلمين في القرون المتأخرة في سائر البلاد الإسلامية، فإن أول ما ابتليت به البلاد الإسلامية من مظاهر الوثنية الحديثة هي الاهتمام والعناية بالصور، خاصة بعد أن توفرت أجهزة التصوير، ثم تطور الأمر إلىٰ رفع الصور، ثم تطور الأمر إلىٰ اتخاذ التماثيل، والآن لا يكاد يخلو بلد من البلاد الإسلامية من رفع الصور وتعظيمها، خاصة صور المعظمين، وهذا مظهر من مظاهر الوثنية الجاهلية.

أقول: وصل الأمر في البلاد الإسلامية إلىٰ أن وضعوا تماثيل لمن يعظموهم، ففي تركيا مثلاً أصنام لأتاتورك موضوعة في الميادين والساحات وكذلك في أكثر البلاد الإسلامية الأُخرىٰ في العراق ومصر والشام وفي المغرب وفي كثير من البلاد الإسلامية، وكانت بدايتها التصوير للحاجة ثم بالصورة عادية، ثم بالصورة مرفوعة، ثم بالصورة موضوعة علىٰ شكل مجسم جزئي كالكف والقدم، ثم الرأس فالنصف، فالجسد كاملاً، وهكذا وقد يكون الغرض ابتداءً للذكرىٰ أو الجمال، ثم يحترم ويقدر ويقدَّس في آخر المطاف.

الخصلة الثالثة: الشرك وصرف العبادة لغير الله تعالى:

من خصال الجاهلية القديمة والحديثة: صرف بعض أنواع العبادة لغير الله تعالى، وهذه البلية من أخطر ما ابتلي به المسلمون بعد القرون الفاضلة وسرت في المسلمين على أيدي الجاهلين والمبتدعين من المتصوفة والرافضة، فإن أول من نشر البدع والتّعلُّق بالأشياء والأشخاص وصرف بعض أنواع العبادة للأموات أو الأحياء أو المشاهد أو الآثار، بالطواف أو الدعاء أو الاستعانة أو الاستغاثة أو غير ذلك، أول من أحدث هذا في المسلمين هم الرافضة الباطنية، حينما حكموا بعض البلاد الإسلامية كالفاطميين والبويهيين والقرامطة والعلويين والصفويين ومن نحا نحوهم، فإن هؤلاء حينما صارت لهم دولة نشروا البدع، ثم تلتهم بعد ذلك تلك الثمرة النكدة من ثمار الزنادقة، وهي الطرق الصوفية، وهي وريثة كل بدعة وشر وضلالة ومحدثة، والصوفية لا تزال شوكة في قلب الأُمة الإسلامية، ولا تزال أعظم وسيلة إلى نشر البدع، وفي توهين المسلمين وصرفهم عن كل ما يصرفهم إلى دينهم، يستغلها أعداء المسلمين في الداخل والخارج.

فالصوفية لا تزال تتولى كبرها في نشر البدع وفي صرف كثير من أنواع العبادة لغير الله تعالى.

الخصلة الرابعة: تقديس الموروثات عن الآباء والأجداد:

من خصال الجاهلية قديمًا وحديثًا: تقديس الموروثات عن الآباء والأجداد، وليست الشرعية الطيبة من الوحي والدين، وإنما الموروثات المادية، فإن إبليس ـ لعنه الله ـ استطاع بمكره وكيده أن يقلب مفاهيم البشر، إذ الناس بفطرتهم يحبون آباءهم وأجدادهم ويحترمونهم، فهذه النزعة

الغريزية صارت وسيلة لتقديس الأشخاص والأشياء، ومنها تدرج بهم الشيطان إلى الشرك.

إن تقديس الموروثات عن الآباء والأجداد كان دينًاوأصلاً في الجاهلية الأولى وفي الجاهلية الحديثة كذلك، فمثلاً عندما جاء النَّبيُّ ﷺ بالتوحيد ودين الحق والهدى والشرع القويم احتج عليه المشركون بأنهم ورثوا عن آبائهم وأجدادهم ما ورثوه من هذا الدين الوثني بما فيه عبادة الأصنام، مع العلم أن الذين شرعوا هذه الأصنام إنما هم بشر من البشر وتعاقبت عليها الأزمان، أي تعاقبت على الأصنام وعلى البدع، حتى صارت كأنها هي الدين، فصارت هذه الموروثات الجاهلية كأنها هي الدين الحق، وما خالفها فهو عندهم المنكر، ومن أنكرها أو عارضها فهو المتهم! الخارج عن العرف والقانون.

والعجيب أن الذين ورثوا عن آبائهم هذه الموروثات الباطلة وعن أجدادهم، استكبروا أن يرثوا الحق، مع العلم أن الأصل في جزيرة العرب أنها كانت على الحنيفية ملَّة إبراهيم، إذًا فأجداد العرب في الحقيقة إنما كانوا على الحنيفية، لكن أصحاب الضلالة ودعاة السوء؛ سواء كانوا من العرب أنفسهم أو من أهل الكتاب الذين وفدوا إليهم، استطاعوا أن يوحوا إلى أوليائهم من المشركين وغيرهم، إلى أن هذه الموروثات إنما تعني ما اخترعوه هم وما شرعوه، لا ما ورثوه عن الأنبياء وعن المرسلين، فلذلك لم يدن العرب في الجاهلية بدين إبراهيم، إنما دانوا بالمبتدعات والمحدثات التي أحدثوها في الدين وسموها موروثات الآباء والأجداد، والتاريخ يعيد نفسه، حيث نجد أكثر العلمانيين والحداثيين ومرضى القلوب في العصور

الحديثة يتعلقون بموروثات الأجداد، ولا يقصدون بذلك الكتاب والسنة، ولا يقصدون بذلك الفضيلة والخلق القويم، ولا يقصدون بذلك الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يقصدون بذلك الحق، لا والله، إنما استمسكوا بالموروثات البدعية والعقائد والأفكار المنحرفة الشاذة، وكذلك بالجاهلية القديمة، ابتداء من موروثات الجاهلية الأُولىٰ، فأصبحوا يحتفون بأسواق الجاهلية بعكاظ وذي المجنة والمجاز والمربد، وبشعراء الجاهلية وأشخاص الجاهلية وهيئات الجاهلية ومعارك الجاهلية، بل يتعلّقوا بجاهليات الأمم، كالفلسفات اليونانية والرومانية والديانات الشرقية الوثنية في الشرق والغرب والملل والنحل الضالة هنا وهناك، فقد أصبحت أمثال هذه الجاهليات علىٰ ألسنة الحداثيين هي الموروثات الشعبية القيِّمة! وجعلوا من الموروثات الشعبية ما ورثناه عن أجدادنا وآبائنا الذي هو من قبيل العادات والأشياء المادية، لا الدين والفضيلة والعلم، كل ذلك تحت شعار الاهتمام بالموروث الشعبي، وقد يخلطون في مسمىٰ الموروث بين الحق والباطل تلبيسًا أو جهلاً، أو نفاقًا.

ولنتساءل، ونقارن في مظاهر هذا الاهتمام:

ما حظ الإسلام من هذا الاهتمام؟ وما حظ المحدثات والمبتدعات والأشياء المادية؟ أعني عند هذا الصنف العلماني منالكتاب والأدباء والحداثيين.

إن تقديس الأشياء المادية، أو العادات، إنما جاء عن الأُمم الهالكة، وهذا يعلق بالوثنيات ثم يُنسىٰ الدين الذي هو إرث الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا

درهمًا ولا دينارًا ، إنما ورثوا هـذا الدين ، وهذا هو الإرث الذي يجب أن تُعنىٰ به الأُمة .

أقول: إن تقديس الموروثات من أبرز علامات الجاهلية .

هناك شبهة يثيرها الذين يعنون بالموروثات ، وهي حق أريدَ به الباطل (وهم من سماتهم أنهم يلبسون الحق بالباطل) يقولون : إن هذه الأشياء ربما نحتاجها يومًا من الأيام ، خاصة الوسائل القديمة من أثاث وغيره ، هذا حق لكن أهذه هي الوسيلة لربط الأجيال بها؟ لا ، بل إن هناك وسائل عدة ، منها : تعليم الناس الحرف ، وردهم إلىٰ الأصالة ، بمعنىٰ أن يكونوا هم الذين يعنون بالصناعات التي يستغنون بها عن المستوردات ، وإنشاء المعاهد والمدارس التي تعلم الأبناء الحرف والمصنوعات التي تغنينا إذا احتجنا لو ـ لا قدر الله ـ حصل أمر يمنعنا من الإفادة مما يصنعه الآخرون .

أما أن نعلق الأجيال بهذه الموروثات علىٰ أنها مقدسات ننظر إليها ونقدرها ونعظمها ونقدسها فقط ، ولا نعرف كيف نستعملها ، ولا كيف نصنعها ، فهذا أمر ينبغي ألا ينطلي علىٰ ذي بصيرة .

الخصلة الخامسة: نبذ كتاب الله تعالى وتفضيل غيره عليه:

وقد بدأت بوادر هذا الخلل والانحراف في أكثر البلاد الإسلامية الأُخرىٰ ، لكن هذه البلاد (أعني المملكة العربية السعودية حرسها الله) بحمد الله لا تزال فيها بقية من خير ، فإن حافظنا عليه فسيبقىٰ بإذن الله ، وسيتحقق حفظ الله لهذا الدين علىٰ أيدينا بإذن الله ، وإن حافظنا عليه ودافعنا عن ديننا

فسنكون من الطائفة المنصورة الظاهرة التي لا يضرها من خذلها ولا من عاداها، لكن إن لم نحافظ ـ لا قدر الله ـ فسيستبدل الله قومًا غيرنا ولا يكونوا أمثالنا.

فينبغي أن نتنبه لهذا الأمر، وهو سنة من سنن الله التي يجب أن نعيها ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

لقد ظهرت هذه الخصلة الجاهلية، وهي نبذ كتاب الله منذ بدأت يد الاحتلال الغربي تلعب ببلاد المسلمين حينها بدأ المسلمون يستبدلون ويضعون بدائل لكتاب الله تعالىٰ وهذا ظاهر من الدساتير والأنظمة التي تحكم بها البلاد الإسلامية بغير ما أنزل الله فلذلك تجد ـ مثلاً ـ القضاة ورجال القانون في البلاد الإسلامية التي تحكم بالقانون الوضعي إذا حكموا في أي قضية من القضايا لا يقولون: قال الله وقال رسوله، ولا يقولون: قال الفقيه، أو مقتضىٰ النص الفلاني أو القاعدة الشرعية، أو الحكم الشرعي كذا، بل يقولون: قالت المادة وقال المشرّع، ويقصدون بالمشرع: البشر الذي وضع القانون، والقانون في الغالب إنما هو مستمد من القانون الفرنسي أو الانجليزي، أو حتىٰ من مشرع من طواغيت العرب، والأمر سواء لا فرق، وهكذا وضعت للناس أنظمة وقوانين ودساتير هي من وضع البشر وحكم الطواغيت وأهواء الأشخاص والشعوب، تُعرض عن كتاب الله تعالىٰ. وهذا من خصال الجاهلية الخالصة، بل هذا هو الكفر والعدول عن دين الله نسأل الله السلامة.

الخصلة السادسة: الجدال في الدين بغير علم:

وهذه الخصلة من أبرز خصال الجاهلية قديمًا وحديثًا، ويتمثل هذا في ما حدث من مشركي قريش ومن اليهود والنصارىٰ والمنافقين في عهد النبي ﷺ، فكانوا كثيراً ما يجادلونه بغير علم، حتىٰ في أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالىٰ، كان أهل الكتاب وكثير من المشركين يجادلون النبي ﷺ وهم يعلمون أنه يوحىٰ إليه، وينزل إليه القول الحق والخبر الصدق، ومع ذلك كانت قلوبهم مقلوبة، كانوا يجادلونه وهم قد يعلمون أن الله تعالىٰ سيكشف كذبهم للنبي ﷺ ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩].

فكيف بالجاهلية الحديثة التي تولاها ورفع لواءها العلمانيون والحداثيون؟ إنهم يجادلون في الله وبدين الله بغير علم، بل كثير من المسلمين أصبح يجادل في الدين، وما عنده علىٰ ما يجادل به من علم، إلا ثقافة أشتات أخذها من أجهزة الإعلام، من الصحافة والجرائد والإذاعة والتلفاز، ونحوها أو تلقفها من ألسنة الناس، وظن أنه بذلك صار عالمًا، فلذلك صار فقه الناس اليوم للدين قليلاً، وكلامهم في الدين كثيراً، إن أغلب الذين يتكلمون في الفتاوىٰ والأحكام يتكلمون بغير علم، ولا فقه في الدين، وهذه من سمات أهل الجاهلية الذين يجادلون في الله بغير علم ولا هدىٰ ولا كتاب منير.

إنه يجب علىٰ المسلم دائمًا أن يتحرىٰ ألا يتكلم في أمر من أُمور الدين،

سواء في الأُصول أو الفروع، إلا عن علم وبصيرة، امتثالاً لقوله تعالىٰ: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾، وإذا لم يعلم ولم يستبصر فعليه أن يسأل أهل الذكر كما أَرشد الله إلىٰ ذلك بقوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾، وما يفعله الحداثيون والعلمانيون وغيرهم الذين بدأوا يتكلمون في الدين، وكأنهم هم أهل الفتوىٰ وأهل الذكر ـ أمر منكر، وظاهرة خطيرة يجب أن نتنبه لها.

الخصلة السابعة: الخلط بين الدِّين والعادات:

من مظاهر الجاهلية اتخاذ العادات دينًا، والدين عادات: فالمشركون الأولون كانوا يحتجون علىٰ الأنبياء والمصلحين بأنهم علىٰ الموروث، وبأنهم ورثوا عن آبائهم وأجدادهم دينهم، ويحتجون علىٰ ما جاء به الأنبياء من الحق والخير والعادت الحسنة بأنها محدثات إنما يعمل بها المستضعفون، كما ذكر الله تعالىٰ عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وهذا المفهوم هو المفهوم عند المُحدَثين من أصحاب الجاهلية الجديدة، فإن تلكم العادات التي تصلح لهم وتخدم أغراضهم سواء في الأخلاق

والسلوك أو في العقائد، يسمونها: عادات موروثة، ويشيدون بها ويحرصون على العمل بها ويحرضون عليها؛ لأنها بزعمهم تقاليد موروثة عن الآباء والأجداد.

أما الأخلاق والأحكام والسنن الإسلامية التي لا يهوونها، سواء في العبادات أو في السلوك كالحشمة، والحجاب، وتعدد الزوجات، وقوامة الرجل على المرأة، أو التستر، أو عدم الاختلاط، ونحو ذلك، كل ذلك يسمونه عادات وتقاليد وأخلاق اجتماعية أو نحو ذلك، بينما يعلمون أنها دين لكنهم يريدون التمويه على الناس، ليقولوا بأن العادات تتطور بتطور الزمن، وأن الناس هم الذين تعارفوا عليها، وهم يعلمون أن الدين دين الله لكنهم يلبِّسون على الناس، كما يصفون أحكام الإسلام بأنها عادات وتقاليد لتيجرأ الناسُ على تركها والتهاون بها؛ لأن العادات ليس لها منزلة الدين القويم أو الشرع، فالعادات والتقاليد تتغير بتطور الزمن، بحيث تصبح محل نظر بزعمهم، وذلك لزعزعة الدين من نفوس المسلمين، وهذه وسيلتهم لصرف الناس عن الدين، ولذلك نراهم يركزون على هذه المسألة، أي وصف الأحكام الإسلامية والأخلاق الإسلامية بأنها عادات موروثة وتقاليد، وأن مصيرها الزوال كما زال غيرها من المظاهر التي تغيرت بتغير الزمن.. وما علموا أن الله تكفل بحفظ دينه، لكنهم قوم لا يفقهون.

الخصلة الثامنة: لبس الحق بالباطل:

من سمات أهل الجاهلية أنهم يلبسون الحق بالباطل، فهم يخلطون الحق بالباطل، ويأخذون من الأدلة الشرعية ما يحلو لهم وينسون ويتناسون ما لا يصلح لهم، أو يضربون آيات الله بعضها ببعض، ويستدلون بالآيات

وبالأحاديث دون نظر شرعي ودون اعتبار لأصول الاستدلال، حيث لا يعرفون الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والعام والخاص. . . إلخ. ولا ينظرون لهذه الاعتبارات، فيأخذون الأدلة التي تحلو لهم ويكتمون ما لا يوافق أهواءهم، ويقولون: الشيء الفلاني حلال بدليل كذا، والشيء الفلاني حرام بدليل كذا، حسب أهوائهم، وهذا من لبس الحق بالباطل، وسيأتي له أمثلة فيما بعد إن شاء الله.

ولبس الحق بالباطل من خصال بني إسرائيل الجاهلية وقد نهاهم الله عن ذلك فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

الخصلة التاسعة: التعبد بالبدع وإشباع الرغبات (الأهواء):

من خصال الجاهلية وسماتها قديماً وحديثًا: التعبد بكثرة البدع والمحدثات في الدين، وجعل إشباع الرغبات والأهواء غاية من الغايات، فالغاية عندهم ليست نصر دين الله، ولا تحكيم شرع الله ولا أن يكون الدين كله لله، إنما يكون همهم تحقيق الشهوات بدعوىٰ تحقيق الرفاهية، وإشباع الرغبات للناس بدعوىٰ الحرية الشخصية وتلبية إرادة الشعوب، فمن هنا استحلوا كثيراً من الوسائل المحرمة؛ للوصول إلىٰ غايات محرمة أو غايات ليست هي الغايات الشرعية التي تحقق رضا الله ومراده، والذي فيه السعادة الحقيقية والخير للبشر.

الخصلة العاشرة: تقديم الكافرين على المؤمنين:

من خصال الجاهلية: تفضيل الكفار والفجار والفسقة علىٰ المؤمنين الصالحين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب**

يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ هذا ما كان عليه أهل الكتاب والمنافقون في عهد النبي ﷺ، ويتمثل في استشارة المشركين لأحد اليهود المنافقين، قالوا له : يا فلان، أينا أهدىٰ، نحن أو محمد، أينا أهدىٰ سبيلاً؟ فأقسم لهم بالله (كما يقسم المبطلون دائماً) أنهم ـ يعني المشركين ـ أهدىٰ سبيلاً، ونجد أهل الجاهلية الحديثة يذهبون بمقالهم أو بلسان حالهم إلىٰ أن الكفار؛ من الغربيين ومن ناصرهم، أهدىٰ سبيلاً من الذين آمنوا، ألا ترونهم يشيدون بالحضارة الغربية والمدنية الغربية؟ ألا ترونهم يجعلونها مثالهم الأعلىٰ، ويحتجون علىٰ المؤمنين بها؟ يقولون إن العالم تطور والأمم تطورت وأخذت بزمام الحياة الراقية، وما ضرَّها ذلك وأنتم إلىٰ ما ؟ هذا لسان حال (بل ومقال) العلمانيين والحداثيين والجاهلين وسواهم من أهل الجاهلية الحديثة ، كما نقرأ في مقالاتهم وفي أحاديثهم وفي توجهاتهم وفي مخططاتهم، إنهم يرون أن الذين كفروا أهدىٰ من المسلمين سبيلاً وأهدىٰ طريقاً، وأن سبيل المسلمين إنما هو طريق الرجعية والتَّخلف. . . إلخ من الأُمور التي ترونها وتسمعونها وتعلمونها، وتلكم شنشنة لا نزال نسمعها من أخزم، أخرس الله ألسنتهم كما طبع علىٰ قلوبهم؟ ولم يفقهوا قول الله تعالىٰ **﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾**.

فهم لا يزالون يتخذون الكافرين والفساق أولياء من دون المؤمنين والصالحين.

الخصلة الحادية عشرة: من خصال الجاهلية: اتهام المؤمنين والصالحين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بالفساد في الأرض:

والله تعالىٰ ذكر عن الكفار والمنافقين في عهد النَّبيِّ ﷺ أنهم : **﴿ إذا قيل**

لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ وقد قال أصحاب فرعون لفرعون: ﴿**أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض**﴾، وقال فرعون عن نبي الله موسىٰ: ﴿**إني أخاف أن يبدل دينكم أو يظهر في الأرض الفساد**﴾، أتدرون ما معنىٰ إفساد موسىٰ وقومه في الأرض؟ يقصدون به أنهم يعارضون الكفر الذي عليه الفراعنة، وأنهم حين أرادوا أن يهدوهم إلىٰ سبيل الرشاد، عدوا هذا فساداً في الأرض.

نعم كذلك قال فرعون لقومه ـ يقول عن موسىٰ ـ: ﴿**إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد**﴾ سبحان الله، إن التاريخ يعيد نفسه.

ألا ترون الآن أن المفسدين ومرضىٰ القلوب يقولون: إن أعمال المتدينين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ومنهج المشايخ وطلاب العلم، تخلف ورجعية، نخشىٰ أن تفسد علينا ما نحن فيه وما شيدناه من وسائل المدنية والحضارة وبرامج التنمية والرخاء التي بنيناها طوال السنين، وهذه اللهجة لا نزال نسمعها ونقرأها، يقول بعضهم: إن المتدينين لا يفهمون شيئًا، وإنهم يريدون أن يوقعوا الأُمة في مشاكل، في إصرارهم علىٰ بعض القضايا التي هي من قبيل العادات والتقاليد، وإنهم بإصرارهم هذا يريدون أن يفسدوا علينا وينغصوا عيشتنا «يكبتوا حريات الناس».

سبحان الله ! من الذي يُخشىٰ أن يفسد؟ الذي يدعو إلىٰ دين الله وشرعه القويم وإلىٰ ما يحقق شكر الله لتبقىٰ النعمة؟ وهل الذي يأُمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ويناصح المسلمين وينصح للأُمة ويدرأ عنها الخطر والرذيلة مفسد؟ لا يقول ذلك أو يعتقده إلا منكوس الفطرة جاهل، ومن أهل النفاق والشقاق، بل وهذه الأمور من العمل بشرع الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإسداء النصيحة هي من أسباب بقاء النعمة، كلنا يعلم جيداً بل نوقن

ضرورة ونقسم بالله تعالىٰ أن من أسباب بقاء النعمة : إظهار شعائر الدين ، من الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومناصحة المسلمين وإرشادهم ، والأخذ علىٰ يد السفيه الذي يريد أن يجر الأُمة إلىٰ الرذيلة بدعوىٰ الحرية والتحرر ، وبدعوىٰ الحرية الشخصية ، ومن يفعل العكس ، أيهما المفسد أو المصلح ؟ زنوا الأُمور بكتاب الله وسنة رسوله ثم احكموا ، وليحكم معكم كل منصف وعاقل ، وإن كان هناك إنصاف وعقل عند أمثال هؤلاء المفتونين .

أقول : التاريخ يعيد نفسه ﴿ **أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض** ﴾ أموسىٰ يفسد في الأرض؟ ومن الذي تبين أنه المفسد في النهاية؟

طبعاً الجاهليون مقاييسهم أن قمة المدنية وغاية ما يريده البشر هو الوصول إلىٰ منتهىٰ الشهوات والترف ، وهذا ما وصل إليه فرعون وقومه وهم يخافون علىٰ ترفهم ؛ لأنهم أكلوا أموال الناس بالباطل ، ولأنهم عاثوا في الأرض فساداً واستباحوا المحارم واستذلوا بني إسرائيل . . إلخ ، فهم لايريدون أن يخرجوا من الوضع الفاسد الذي هم فيه ، والآن أتدرون ما الذي يخيف أُوروبا والغرب من المسلمين؟

يخيفهم من المسلمين أن يخرجهم المسلمون من الرذيلة إلىٰ الفضيلة ، ومن عبادة الأوثان وعبادة الأشخاص والقوانين إلىٰ عبادة الله وحده ، هم لا يريدون الحق ، وكذا أشياعهم من العلمانيين ، هذا هو هاجسهم الذي يقلق بالهم .

الخصلة الثانية عشرة: اللهو عن ذكر الله:

وذلك بالتزام الصفير والأغاني والتصفيق والملاهي وغيرها بدل ذكر الله

والصلاة: وهذه الخصال بدأت بيننا مع الأسف، من كثرة التصفيق والصفير عند أي أمر يعجب أو أي أمر مثير للحماس أو غيره، نجد هذه الظاهرة بدأت في المسلمين كثيراً، فالصفير والزعيق والأصوات المزعجة والمكاء والتصدية والأغاني، والإكثار من الملهيات، بدل ذكر الله وشكره على نعمه، أو بدل التكبير والتهليل، كما ذكر الله عن أهل الجاهلية الأولى ﴿**وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾ [**الأنفال**: ٣٥].

والمكاء والتصدية هما الصفير والتصفيق.

الخصلة الثالثة عشرة: من خصال الجاهلية: المكر الكبّار:

والمقصود بالمكر الكبار: الاحتيال على الدين والكيد له، وصد الناس عنه، والكيد للمؤمنين والمصلحين، واتهامهم ولمزهم، والتحريض عليهم، وحجب الناس عن الاستماع لهم، ومن ذلك تلكم الحرب الإعلامية الشرسة الموجهة ضد الأمة الإسلامية في كل أنحاء المعمورة، ووصفها بالأُصولية، والتطرف، والمعارضة، واتهامُها بما اتهم به أتباع الرسل، ﴿**ومكروا مكرًا كبارًا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا وقد أضلوا كثيرًا**﴾.

ومن المكر الكَّبار الذي تتميز به الجاهلية الجديدة: هيمنة الاتجاهات العلمانية والإلحادية على البشرية ومحاربة الخير والفضيلة، ونشر الإباحية والرذيلة، وفصل الدين عن الدولة وعن الحياة.

الخصلة الرابعة عشرة: ادعاء التدين: ذلك أنهم قد يدّعون الدين والتمسك بالدين وقد يدعون محبة الشرع، ومحبة الله ودينه، مع مخالفتهم

للدين في العمل والسلوك:

لذلك قال الله تعالىٰ عن هؤلاء لنبيه ﷺ: ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ وهذا هو الميزان، إن كثيرين ممن بين ظهرانينا من الجاهليين يقولون: نحن فئة من المجتمع المسلم نحب الله ونصلي ونقيم شعائر الإسلام، نقول: نعم، هذا أمر بينكم وبين ربكم، والله سبحانه وتعالىٰ يحاسبكم عليه، ونحن نشهد لكل من أقام شعائر الإسلام بالإسلام، لكن هل عملتم بحقيقة هذه الدعوىٰ هل سلمتم لله تعالىٰ؟ وهل اتبعتم الرسول؟ ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ فهذا ميزان عدل لا يتخلف في كل زمان، فإن كانوا علىٰ السُّنَّة والتزموا شرع الله فدعواهم صحيحة، وإن لم يكونوا كذلك فهم كاذبون. نعم، من ادعىٰ أنه مسلم وأظهر شعائر الإسلام، ومع ذلك هو يسعىٰ لإظهار الفساد في الأرض، وإلىٰ معارضة شرع الله والبعد عن دينه، فهو منافق ظاهر النفاق وان صلىٰ وصام، قال تعالىٰ عن المنافقين: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾[البقرة: ٨ ـ ١٣].

الخصلة الخامسة عشرة: اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد:

وهي من الخصال التي كان عليها أهل الكتاب، ولعنهم النَّبيُّ ﷺ

بذلك، فقال: «لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[(١)].

وهذه البلية استفحلت بين المسلمين في أكثر البلاد الإسلامية، ولم يسلم منها إلا هذا البلد بحمد الله (المملكة العربية السعودية) وأكثر دول الخليج فلا تزال هذه البلاد محمية من البدع، من رفع البناء علىٰ القبور واتخاذها مساجد، ونسأل الله أن يحميها إلىٰ أن تقوم الساعة، ويطهر جميع بلاد المسلمين من هذه البلية.

الخصلة السادسة عشرة: تعطيل حدود الله:

ويدخل في ذلك: التَّفلُّت والتذمر من الشرائع الإلهية والتعدي علىٰ حدود الله.

ومن ذلك تعطيل الحدود أو بعض الحدود، أو إقامتها علىٰ المستضعفين دون الكبراء، أو علىٰ فئات من الناس دون فئات؛ ولم تقف الجاهلية الحديثة عند حد تعطيل الحدود فحسب، فتجرأت علىٰ الطعن في شرع الله تعالىٰ ووصفه بالقسوة والشدة والهمجية، حتىٰ تأثرت بعض الاتجاهات الإسلامية، وزعمت أنه يسع المسلمين أن يعطلوا حدود الله، وأنها لا تناسب العصر؛ ولا تليق بالأُمم المتحضرة، ولقد وصل الأمر عند بعض المسلمين المنهزمين أو الجهلة إلىٰ القول بأن الحدود لا أصل لها في الشرع، ونحو ذلك من الدعاوىٰ والشبهات الباطلة.

الخصلة السابعة عشرة: الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب:

استطاعت الجاهلية الغربية إبان احتلالها لأكثر بلاد المسلمين، غرسَ الفرقة بينهم، ومن ذلك: التفريق بين العرب والعجم، أو بين بلد وبلد

(١) رواه البخاري «الفتح»: (١/ ٥٣٢)، ومسلم: الحديث (٥٣١).

آخر، أو بين شعب وشعب، أو بين قبيلة وأخرىٰ علىٰ جهة المفاخرة أو الازدراء، أو التعالي علىٰ الناس بالنسب والحسب، وإثارة النعرات الشعوبية، والقومية، والجغرافية.

الخصلة الثامنة عشرة: النياحة على الأموات، وإقامة المآتم:

وهذه الخصْلة ابتلي بها المسلمون في أغلب الأقطار الإسلامية التي تنتشر فيها بدع الصوفية والرافضة، وبدأت بوادرها عندنا عند بعض الجاهليين (أقصد إقامة المآتم علىٰ الموتىٰ) فإن هذا من أغلظ البدع ومن أبرز سمات الجاهلية، كما قال ﷺ: «أربع في أُمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة» وقال: «والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[1].

الخصلة التاسعة عشرة: من خصال الجاهلية الكبرى:

التعزي بعزاء الجاهلية أو الدعوىٰ بدعاوىٰ الجاهلية:

والمقصود بها: رفع شعارات الجاهلية، كالافتخار بالإقليمية أو بالوطن أو بالقبيلة أو بالنسب أو بالحسب أو الشعارات القومية أو الوطنية والتعلق بآثار الجاهلية، فقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ في الحديث الصحيح في قصة الأنصاري والمهاجري اللذين كسع أحدهما الآخر، فحصل بينهما خصام في إحدىٰ الغزوات فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فكادت تكون بينهما فتنة، فجاء النَّبيُّ ﷺ فقال: **«ما بال دعوى الجاهلية؟»** مع أنهم يقولون: يا للأنصار، وهو وصف شرعي، وما قالوا: يا

---

(١) «صحيح مسلم»: الحديث (٩٣٥).

للخزرج، يا للأوس، يا لقريش، بل كل واحد نادىٰ في فئة من فئات المسلمين، ومع ذلك عده النَّبيُّ ﷺ من الجاهلية، فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية**» ثم قال: «**دعوها فإنها خبيثة**» وقال النَّبيُّ ﷺ: «**من تعزى بعزاء الجاهلية**» - يعني نادىٰ بأي نداء أو بأي شعار من شعارات الجاهلية، أو تعلَّق بأي آمر من أُمور الجاهلية علىٰ وجه الافتخار والعصبية - قال: «فأعضُّوه بِهْنِ أبيه ولا تكنُّوا» بمعنىٰ: عيروه بأن قولوا له: (عض ذكر أبيك) صراحة بلا كناية؛ لشدة وشناعة ما دعا به.

الخصلة العشرون: من خصال الجاهلية: الاستسقاء بالنجوم أو التعلق بالأنواء:

يعني ربط كثير من الأحداث في الأرض بالنجوم والاعتقاد بأن للنجوم أثر في أقدار البشر وحظوظهم وأحوالهم ومصائرهم، فالجاهلية المعاصرة، أحدثت من ذلك ما لم تكن عليه الجاهلية الأولىٰ.

وكانوا إذا أُمطروا قالوا: مُطرنا بنوء كذا. فعده النَّبيُّ ﷺ من خصال الجاهلية، فكيف بمن علقوا بالنجوم وبالأنواء مصائر البشر، ومع الأسف وفدت إلينا هذه الظاهرة - ظاهرة التشاؤم والتفاؤل بالأنواء والنجوم - من خلال الصحف (خاصة الصحف العربية) التي ترد من البلاد الأُخرىٰ، فإنك تجد ذكر الطوالع: فلان طالعه سعيد، أو طالعه غير سعيد، ويعلقون التشاؤم والتفاؤل والأقدار والأرزاق والحظوظ بالنجوم، وهذا كفر - والعياذ بالله -.

الخصلة الحادية والعشرون: من خصال الجاهلية: استحلال المحرمات والفواحش، كاستحلال الربا وأكله، واستحلال أموال الناس بالباطل:

ومن أبرز أعمال الجاهلية في ذلك: أكل الربا وتشريعه، وشرب الخمر وحمايته، وعمل الميسر وترويجه، وإشاعة الزنا وحمايته، وإظهار الفواحش وحمايتها، فكان أهل الجاهلية الأولىٰ: المال عندهم يقوم علىٰ الربا، وكانت الفاحشة مشروعة عندهم، وكانوا يمارسونها، بل كانوا يؤجرون الجواري والنساء للبغاء ويأخذون أُجرة الزنا، ويزعم الجاهلون أنهم علىٰ درجة عالية من الفضيلة والشرف! أي فضيلة وأي شرف هذا؟ إنما هي شرف وفضيلة الجاهلية.

والجاهليون والعلمانيون اليوم يشربون الخمر ويستحلونه، بل يحمونه، وكذلك الربا والزنا والفواحش والتبرج والاختلاط والانحلال.

ولو نظرنا إلىٰ أنظمة أكثر الدول الإسلامية لوجدناها تحمي المحرمات والفواحش باسم الحرية والديمقراطية وإرادة الشعب، وما عدا هذه البلاد ـ بحمد الله ـ لا تزال تحكم بشرع الله، ونسأل الله أن يحميها.

أقول: إن من أبرز خصال الجاهلية أن القوانين الوضعية في بلاد المسلمين تحمي الزنا وتحمي الربا وتحمي الفواحش وتحمي الرذيلة وتحارب الفضيلة، ومع ذلك نجد أن القانون في بعض البلاد الإسلامية قد يتهم المسلم بتمسكه بالسنة.

نعم لا تزال ـ بحمد الله ـ بلادنا المملكة العربية السعودية حرسها الله من كل سوء ـ أسلم من غيرها من هذه الأنظمة والقوانين الجاهلية، لكن يحسن أن نعرف أن هناك من أبناء جلدتنا ممن يتكلمون بألسنتنا ويدينون ظاهراً بديننا ويصلون صلاتنا، من يريد أن يدخل هذه المصائب في بلادنا، ومن يريد أن تكون بلدنا كالبلاد الأُخرىٰ، يريدونها جاهلية، نعم يريدون

الجاهلية بعينها، لقد استطاع الكفار وأذناب الكفار (العلمانيون) أن يوصلوا أكثر البلاد الإسلامية إلىٰ أن تسود فيها أحكام الجاهلية، في الأنظمة والأحكام والأخلاق، ويقولون: هذا هو التقدم، وهذه هي الحرية، وهذا التطور الذي ننشده، بل ينشدون أكثر من ذلك؛ يريدون من البلاد الإسلامية التي وصلت إلىٰ هذا الحد أن تحمي الرذيلة وتحارب الفضيلة، تحمي القوانين الوضعية وتحارب الشريعة الإلهية، التي أنزلها الله رحمة للعباد، بل يريدون أن تكون أكثر من ذلك أيضًا، يريدون أن تظهر الفواحش وتسود المنكرات كما يحدث في أُوربا وأمريكا، ومما يؤسف له أن الحداثيين والعلمانيين الذين خرَّبوا البلاد الإسلامية الأُخرىٰ قد صوبوا سهامهم إلىٰ هذه البلاد، ما يريدون منها؟ لست أدري، إن عندهم ما يكفيهم ويشبع نهمتهم من الفجور والفساد، لكنه الشيطان لا يرضىٰ أن يعبد الله في الأرض ولا أن يبقىٰ في الأرض شيء من الحق، وأعوان الشيطان كذلك، وأخشىٰ أن بين ظهرانينا من الجاهلين والذين يحبون أن تشيع الفاحشة من يعين الكفار والمفسدين والأعداء من الخارج ﴿**وفيكم سماعون لهم**﴾.

الخصلة الثانية والعشرون: من خصال الجاهلية: الافتتان بالنساء:

والفتنة أو الافتتان بالنساء، مما حذر منه النبي ﷺ قال: «اتقوا الدنيا واتقو النساء»(١)، ومن الافتتان بهن: إتاحة الفرصة لهنَّ لإخراج المفاتن والاختلاط بالرجال، وفتن الرجال لتشيع الفاحشة في المؤمنين، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر علىٰ الرجال من النساء»(٢)، وهذا لا يعني أن الإسلام يحتقر المرأة، كما يزعم العلمانيون والجاهلون، بل المنصف

(١) أخرجه مسلم [٢٧٤٢].

(٢) البخاري «الفتح»: (٩/ ١٣٧)، ومسلم: الحديث (٢٧٤٠).

العاقل المتأمل لو قرأ القرآن والسنة لوجد أن الرجال أُوصوا بالعناية والرعاية والعطف على النساء، بل الإسلام هو الذي حرر المرأة، لكنهم يقصدون معنى آخر وهو إفساد المرأة (يسمونه تحرير المرأة) أي إخراجها لتختلط بالرجال، ولتفتن الرجال ولتسفر وتتبرج، ولتخرج عن فضيلتها وحشمتها وعن صيانتها (يسمون ذلك حرية).

الخصلة الثالثة والعشرون: تبرج الجاهلية الأولى:

هي من خصال الجاهلية التي ظهرت بسبب التشبه بالكافرين وتبرج الجاهلية الأُولى أقل فحشًا من تبرج الجاهلية المعاصرة، فهو ليس كما يظنّ بعض الناس أنه التعري، لا، بل كان تبرج الجاهلية الذي نهى الله عنه (كما قال بعض السلف): إخراج الوجه واليدين.

ومنهم من قال: تبرج الجاهلية: إخراج الوجه واليدين والرقبة وشعر الرأْس، ومنهم من قال: تبرج الجاهلية: إخراج النحر ـ نحر المرأة فقط ـ ما قالوا: إخراج السوءة والعورات.

وقيل: تبرج الجاهلية: اختلاط النساء بالرجال وإن كن متحشمات، قاله بعض السلف. فإذا كان هذا تبرج الجاهلية الأُولى الذي حذر الله منه في القرآن فكيف بتبرج الجاهلية المعاصرة؟!

ويدخل في ذلك: تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال، وهو من خصال الجاهلية كذلك.

ومن ذلك أيضًا: إفساد المرأة المسلمة لتكون كالنساء الكافرات، خارجة عن الفضيلة، متمردة على قوامة الرجل، متبرجة مختلطة سافرة، وغير ذلك من المآسي التي وقع فيها الكفار.

وقد أشرت إلىٰ أن النَّبيَّ ﷺ حذر أُمته من فتنة النساء، فقال: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**» [صحيح البخاري]، وقال ﷺ: «**هلكت الرجال حين أطاعت النساء**» رواه الإمام أحمد وغيره بإسناد جيد، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**إنكن صواحب يوسف**» قاله ﷺ تأييداً للشاعر في قوله: «وهن شر غالب لمن غلب»، ولعن النَّبيُّ ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء.

وإذا تأملنا واقعنا نجد أن أعظم وسيلة يحاول بها العلمانيون والمنافقون الفسَّاق، هدم الفضيلة وهدم قيم الإسلام، هي ما يسمونه بتحرير المرأة أو حرية المرأة، بل هو إفساد المرأة، المرأة ـ بحمد الله ـ في هذا البلد[1] تأخذ حريتها بشرع الله وحكمه، وحق المرأة في هذا البلد يُحكم فيه بشرع الله، سواء ما يتعلق بالأُمور القضائية، أو غير القضائية، فماذا يريدون؟ لست أدري، بل أقول: أدري وتدرون، أقصد أنهم لن ينتهوا إلا برادع شرعي، أو يَصِلُون ـ لا قدر الله ـ إلىٰ ما يريدون، إن أعظم وسيلة لتقويض المجتمع الإسلامي في كل مكان هي هدم كيان الأُسرة والأُمة، وقتل الفضيلة ونشر الرذيلة، تكون بإفساده المرأة؛ لأن الفضيلة والشرف والعفاف والأُسرة وصلاح المجتمع كله رهين بصلاح المرأة، المرأة هي التي يصلح بها البيت، وهي التي يصلح بها ـ بإذن الله ـ الأولاد، وهي التي يصلح بها الرجال، وهي التي تصلح بها الأُمة، وهي مظهر من مظاهر الإسلام إن احتشمت، ومن مظاهر الجاهلية والفتنة والفساد إن خرجت عن حشمتها، فإذا أفسدوا المرأة بما يدعون إليه من التبرج ونزع الحجاب، وإلىٰ الاختلاط وإلىٰ الانفلات من قوامة الرجل وإلىٰ التسيب، وإلىٰ ترك البيت وإهمال الأُسرة

---

(١) المقصود بهذا البلد حينما وردت في هذه المحاضرة (المملكة العربية السعودية).

والأولاد ـ بدعوىٰ الحاجة إليها في العمل ـ إذا أُفسدت المرأة بذلك فَسد الفردُ والأُسرةُ والبيتُ والمجتمع، وهذه البلية هي التي بها تحطمت البلاد الإسلامية الأُخرىٰ فهل نعتبر؟!

والآن أكتفي بذكر دور وسائل الإعلام في خدمة أغراض العلمانيين والجاهليين:

لقد برز في الآونة الأخيرة كَتَبة وكَاتِبَات عبر بعض وسائل الإعلام عندما يتكلمون من خلال مقالات وقصائد تحت مسمىٰ معالجة القضايا الاجتماعية، من خلال تمثيليات أو مسلسلات أو غيرها، يركزون علىٰ قضايا خطيرة ويضربون علىٰ الوتر الحساس، وبخاصة حول قضايا المرأة، والمرأة تسمع وترىٰ، والجيل الناشئ يسمع ويرىٰ وينشأُ علىٰ ذلك، وهم يضربون ـ مثلاً ـ علىٰ قضايا تعدد الزوجات والحجاب، وقوامة الرجل، ويصورونها بأنها من التقاليد البالية من العادات السيئة ومظهر من مظاهر التخلف الأُسري والاجتماعي.

وهم بذلك يطعنون في شرع الله، مَنْ الذي أحل تعدد الزوجات؟ الله سبحانه وتعالىٰ، كذلك يرون قوامة الرجل علىٰ المرأة، ويضربون علىٰ هذا الوتر كثيراً، مع أن الذي قال: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ هو الله سبحانه وتعالىٰ، ويضربون علىٰ قضية الحشمة والحجاب ويسمونها التقاليد ويسمونها العادات والله تعالىٰ يقول: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾.

ويحاربون بقاء المرأة في المنزل، معارضة لقول الله تعالىٰ: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ وهم أحرص ما يكونون علىٰ الاختلاط، وهذه البلوىٰ خطا فيها العلمانيون خطوات كبيرة وجعلوا

المجتمع يستمرئ ويستسهل الاختلاط من خلال وجوده في بعض المؤسسات والمستشفيات وغيرها، كأنهم يقولون: هذه مسألة أصبحت عادية فيجب أن تعمم، أو ينبغي أن نلجئ المجتمع إليها بالضرورة، وكذلك الأمر في بعض المؤسسات التعليمية كالجامعات فقد يلجئون بعض الدارسين والدارسات إلى الاختلاط بدعوى قلة المعامل والوسائل والأساتذة، وكان العلمانيون - دائمًا - يحرصون على أن لا تقوم للمرأة مؤسسات تعليمية مستقلة عن الرجال في كليات الطب، أو جامعات مستقلة.

العلمانيون يكادون يخربون بيوتنا وبيوت المسلمين بأيديهم وأيدي الكفار فاعتبروا يا أُولي الأبصار.

وفي الختام أقول: يجب أن نكون يقظين، مسؤولين ورعية ماذا يراد ببلدنا جميعًا؟ إننا يجب أن نتنبه جميعًا، إن جميع قوى الفساد في الأرض الآن في الداخل والخارج وجهوا سهامهم إلينا، إلى حرب هذا البلد الطيب وهدم الدين وقتل الفضيلة في مهدها وهتك الشرف ودفن الفضيلة في الصحراء.

إن هذه البلاد التي خصها الله بخصائص يجب أن يحميها أهلها؛ من ولاة الأُمور ومن الرعية، يجب أن ندرك ضخامة المسؤولية، فبلدنا - بحمد الله - لا تزال عندها خصائص تبشر بخير، فهي مهبط الوحي وهي مهد النبوة وأرض الرسالات والمقدسات، وتحكمها دولة قامت على الإسلام ولا تزال - بحمد الله - ترفع شعار الإسلام، ولا تزال محط أنظار المسلمين، بأنها دولة التوحيد والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والعلم، ولم تظهر فيها البدع والشركيات، وشعارها الإسلام ودستورها الشريعة، وتطبيق الحدود،

والقضاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد كسبت بذلك الأمن والرخاء، وصارت عزيزة مهيبة، وهذه المكتسبات التي حققناها بتطبيق الشرع لن تبقى إلا بالحفاظ على الشرع، وهذه حقيقة لا تقبل الجدل، لكن العلمانيين الآن يعكسون القضية، ويقولون: إن ما بنيناه سيهدمه الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهذا من لبس الحق بالباطل الذي هو من خصال الجاهلية، إن المكتسبات التي حققتها الدولة وحققتها الأُمة بشرع الله تعالى لن تبقى إلا بشرع الله، بل إن الله توعد من مكر ومن لم يشكر، فقال سبحانه: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ فالخروج عن شرع الله إنما هو كفر بالله تعالى، وهو من أسباب زوال النعمة.

هذا وأسأل الله أن يحمينا ويحمي بلادنا وجميع بلاد المسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن، كما أسأله تعالى أن يوفق ولاة أُمورنا لما فيه خير الإسلام والمسلمين، وأن يسددهم وأن يرشدهم إلى الخير والحق وأن يهيئ لهم من أمرهم رشداً، وأن يرزقهم البطانة الناصحة الصالحة التي تعينهم على الخير، وأن يبعد عنهم بطانة السوء التي تعينهم على الشر من العلمانيين والمنافقين، وأن يقيهم شر كيد الكافرين.

* * * * *


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosailililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الفهرس

*****

*****